رسائل غسّان كنفاني إلى غادة السّمّان



سلسلة «مراسلات الأدباء» سلسلة «مراسلات الأدباء»
سلسلة «مراسلات الأدباء» سلسلة «مراسلات الأدباء»

قدّمت لها: غادة السّمّان

دار الطليعة - بيروت

بيروت ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى
تموز (يوليو) ١٩٩٢

الطبعة الثانية
كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣

صورة الغلاف: الشهيد غسان كنفاني وغادة السمان والفنان بهجت في تلفريك جونية، المصور مجهول.

الغلاف الأخير: تتابع الأسماء بالترتيب الأبجدي.

رسائل غسّان كنفاني إلى غادة السمّان

..

قدّمت لها:

غادة السمّان

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

يعود ريع هذا الكتاب إلى
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية (*)

(*) لأنني لا أريد من هذا الكتاب أي ربح مادي، ارتأيت منذ الطبعة الأولى أن يذهب ريعه إلى المؤسسة. وها أنا أعيد الكرّة رغم الرفض.

محاولة إهداء:

إلى الذين لم يولدوا بعد

هذه السطور التي أهداني إياها ذات يوم وطنيٌّ مبدعٌ لم يكن قلبه مضخة صدئة،

أهديها بدوري إلى الذين قلوبهم ليست مضخات صدئة،

وإلى الذين سيولدون بعد أن يموت أبطال هذه الرسائل،

ولكن سيظل يحزنهم مثلي أن روبرت ماكسويل دفن في القدس في هذا الزمان الرديء، بدلاً من أن يدفن غسان كنفاني في يافا.

غادة

HAMDAN.B
22/11/2009

محاولة تقديم أولى:

الخروج من الخاص إلى العام(*)

١ ـ الخنساء لم تصب بالعمى لكثرة ما رثت إخوتها القتلى وبكتهم ـ كما هو شائع في كتب الأدب ـ ولكنها رثت قتلاها وبكتهم لأنها كانت (عمياء) منذ البداية! إنها لم تر في الموت غير الموت. إنها لخطيئة مميتة أن لا نرى في الموت غير الموت.

٢ ـ كي أتجنب السقوط في فخ الرثاء الذي أكره، والرومانسيات التي لا تجدي، لن أكتب عن غسان كنفاني، وإنما سأتركه هو يحدثنا عن نفسه.

٣ ـ يخيل إلي أحياناً أننا جميعاً تحدثنا عنه بما يكفي، وأن الناس في شوق إلى سماع صوته هو. وهذا ممكن بفضل عادة سيئة طالما تملكتني، هي «الحوار الأبجدي» مع رفاقي، زادت في تفاقمها عادة سيئة أخرى من عاداتي وهي كثرة الترحال، بحيث تصير الرسائل أحياناً وسيلة التخاطب الوحيدة الممكنة.. وعبرها نتابع حوارنا الأدبي والحياتي.

٤ ـ أترك غسان كنفاني يتحدث إليكم عن نفسه وعن «**الرجال الذين لا يمكن قتلهم**».

٥ ـ حولوا الآن صفحة نفوسكم الهائجة الأمواج إلى صفحة

(*) كُتبت هذه المقالة في بيروت في الذكرى السابعة لاستشهاد غسان كنفاني ونشرت في مجلة **الهدف** (تموز ١٩٧٩) التي أسسها الشهيد وعمل رئيساً لتحريرها حتى لحظته الأخيرة. وفي المقالة مقتطفات من رسائل هذا الكتاب، نشرت يومئذ معززة بصورتها بخط يد الشهيد.

بيضاء كالشاشة، وفوقها سترتسم كلماته كلسع النار والجليد معاً. تذكروا، أنا لست هنا لأرثيه، بل لأشهر صوته على الذاكرة كالخنجر. وكل ما سأفعله هو (مونتاج) صغير للذكريات، وكل ما سأقوله لن يتجاوز ما يقوله معلق إذاعي يبذل جهداً غير بشري كي يكون محايداً وبشرياً أمام شريط من أحداث له طعم المعجزة.

لماذا (المونتاج)؟ لأن الذاكرة عين بملايين الأجفان، نسدلها كالستائر جفناً بعد الآخر على ما كان، وسأرفع اليوم جفناً واحداً لأن المجال لا يتسع لمزيد. ولأن الذاكرة حنجرة بملايين الأصوات اخترت لكم منها إيقاعاً واحداً هو صوت المذيع المحايد، فصوت غسان ليس بحاجة إلى كورس أغريقي من الندابات.

٦ ـ قلت لكم صفحة بيضاء كالشاشة. حدقوا جيداً. الآن ترتسم فوق الشاشة صورة غسان وهو في العاشرة من عمره «**طفلاً شقياً مبللاً بمطر يافا الغزير، بعد أن ركض طويلاً تحت المزاريب**».

ـ هل ذكرت لكم أن كل ما هو ضمن قوسين وبالحرف الأسود منقول حرفياً من رسائله؟

لقد تعمد غسان بمطر يافا، وحين غادرها كان مطرها قد اخترق جلده إلى الأبد وصار من بعض دورته الدموية.. وكان النسيان مستحيلاً. وكان غسان منذ البداية يتقن استعمال قلمه وسكينه معاً، ويؤمن بهما معاً. كان صغيراً يوم ادخلوا أخته فايزة ـ وكان يحبها كما يحب وطنه ـ إلى غرفة العمليات بسبب ولادة عسيرة، فاقتحم غرفة العمليات:

«**رفعت المشرط في وجه المسكين ولسون، ذلك الاسكتلندي الطيب الذي كان يجد فيّ ما لم أجده أنا نفسي. إنه يضحك بلا شك حين يذكر القصة. كنت أنا على حق رغم كل شيء، وقلت له: ليمت الطفل، ولكن إذا ماتت هي فستموت معها هنا. ورفضت أن أخرج وظللت مثل مجنون فار مثبتاً ظهري إلى الزاوية وانظر إليها مضرجة بالدم تحت أصابعه الباردة وحين تنفس الصعداء بعد قرن من**

الرعب أخذت أبكي، وسقط المشرط من يدي... ولم أرها إلا بعد أن صار أسامة في الرابعة من عمره...».

هكذا أرى غسان دائماً: رجل قلمه من الناحية الثانية مشرط قاطع، إنه الرجل الذي لا يحجم عن استعمال السلاح المناسب في الوقت المناسب، طرف القلم، وطرف المشرط، وبوسعه:

«**أن يصنع الحياة بمشرط جارح**».

وبعد أن فقد الوطن:

«**أُحِسُ كم كان فقدانه هولاً تساوت فيه إرادة العيش بشفرة المشرط. إنني لا أنسى حدقتي الدكتور ولسون حين كانت تسبح فيهما تلك الكرتان الزرقاوان، كان رجلاً قادراً على الفهم من فرط ما شاهد الناس يموتون ببساطة، ويتركون العالم بملاجىء أقل**».

وكان غسان يمتلك الملجأ الأكبر: الوعي بقضية. بيقين. بهدف. كان منذ البداية يعرف «الهدف» الوطن:

«**سأظل أناضل لاسترجاعه لأنه حقي وماضيّ ومستقبلي الوحيد. لأن لي فيه شجرة وغيمة وظل وشمس تتوقد وغيوم تمطر الخصب وجذور تستعصي على القلع**».

«**لقد حاولت منذ البدء أن أستبدل الوطن بالعمل، ثم بالعائلة، ثم بالكلمة، ثم بالعنف، ثم بالمرأة، وكان دائماً يعوزني الانتساب الحقيقي. ذلك الانتساب الذي يهتف بنا حين نصحو في الصباح: لك شيء في هذا العالم فقم. أعرفته؟ وكان الاحتيال يتهاوى، فقد كنت أريد أرضاً ثابتة أقف فوقها، ونحن نستطيع أن نخدع كل شيء ما عدا أقدامنا، إننا لا نستطيع أن نقنعها بالوقوف على رقائق جليد هشة معلقة بالهواء**».

وكانت تمر لحظات من الألم الشرس في نفس غسان الفنانة المرهفة، وكان يعرف أن درب الانتماء هي ما تبقى له:

«**أستطيع أن أكتشف ذلك كله كما يستطيع الجريح في الميدان**

المتروك أن ينقب في جروحه عن حطام الرصاص، ومع ذلك فهو يخاف أن ينتزع الشظايا كي لا ينبثق النزيف. إنه يعرف أن الشظية تستطيع أن تكون في فوهة العرق المقطوع مثلما تكون سدادة الزجاجة ويعرف أن تركها هناك، وحيداً في الميدان، يوازي انتزاعها. فالنهاية قادمة، لا محالة... ولو كان شاعراً فارساً يمتطي صهوة الصحراء الجاهلية لاختار أن يموت رويداً رويداً: يده على كأسه الأخيرة، وعينه على النزيف الشريف».

ماذا يفعل بالضبط؟ يمشي نحو «الهدف» أي هدف:

«**كما يؤمن التقي بالله والصوفي بالغيب**».

٧ ـ وهذا النقاء الفذ، هو مهمازه للوقوف إلى جانب أصدقائه حين يقعون في ورطة. فالشخصية وحدة لا تتجزأ ـ أو أنها كانت هكذا على الأقل لديه ـ.وبعد حرب حزيران، ورغم ألمه الفادح للهزيمة، فإن ذلك لم يلهه عن مد يد المساعدة إلى زميلة عمل مثلي رمت بها الأقدار في لندن ـ بالأحرى رمت هي بنفسها هناك للدراسة ـ فطردوها من العمل البيروتي ومن المحبة، وحكمت بالسجن ثلاثة أشهر لجرم لم تكن تدري انها ارتكبته قبلها بعامين (وهو ترك العمل الدمشقي بدون إذن رسمي وهو أمر محظور على حملة الشهادات العالية).

وها هو في رسالة واحدة يحدثني عن ألمه الكبير ولا ينسى المساهمة عملياً في تخفيف ألمي الشخصي:

«**ماذا أقول لك؟ إنني أنضح مرارة.. يعصر لساني الغضب مثلما يعصرون البرتقال على الروشة**»، «**أنا لا أستطيع أن أجلس فارتق جراحي مثلما يرتق الناس قمصانهم**».

لكنه لا ينسى رتق وجعي المادي والعملي المربك، فينفحني بجواز سفر ينقذني من العودة مرغمة إلى السجن، ويساهم في إيجاد عمل جديد لي بصيغة كلها فروسية كما لو كان هو بحاجة إلى أن أعمل!.

«**هام: كان أحمد بهاء الدين عندي اليوم وطلب مني جاداً**

ورسمياً أن أكتب لك رجاءه ورجاء مؤسسته - دار الهلال - بأن تكتبي للمصور من لندن رسائل أدبية وفنية وإذا شئت سياسية بأسلوبك. إن المصور مجلة جادة وذات توزيع مرتفع وتدفع أسعاراً جيدة - إذا رغبت بذلك ابعثي له رسالة إلى دار الهلال بالقاهرة.. إن ذلك في رأيي مرحلة جيدة ومفيدة، وسيكون الاتفاق واضحاً يحولون لك الفلوس إلى لندن أو يفتحون بها حساباً لك في القاهرة - إنه يهديك تحياته أيضاً»..

ووصلت الرسالة بعد أن كنت قد باشرت العمل خارج حقل الصحافة، وكان القرف يغمرني إثر تجربتي السابقة مع المجلة التي طردتني دونما إنذار، فتابعت عملي بدل أن أكتب «للمصور» لكن جواز السفر كان طوق نجاة ولمسة حنان أنقذتني من السجن ريثما اعتقني أوائل السبعينات فيما بعد «عفو عام» شملني.

بهذه الشفافية كان غسان يساعد رفاقه حين يسقطون وبمثل هذه الكلمات كان يشجع رفاق القلم حين يخذلهم العالم:

«**بوسعك أن تدخلي إلى التاريخ ورأسك إلى الأمام كالرمح. أنت جديرة بذلك**».

غسان يحترم المرأة العاملة، ولا يخجل من دعمها علناً. لم يكن ثورياً فصامياً. كان حقيقياً وأصيلاً في كل ما يفعله، وكان الانسجام قائماً لا بين فكره والعالم الخارجي فحسب، بل بين فكره وجسده:

«**هل تفهمين؟ إنني رجل مأساتي هي في ذلك التوافق غير البشري بين جسدي وعقلي، هكذا قال لي الدكتور ولسون يوماً: ولذلك أنت مريض بالسكر يا صغيري!**».

لكن ذلك التوافق كان يجعل الصداقة وغسان حقيقية وحميمة وشاملة، وكنا نحبه كما هو داخل إطاره. وكما كان يأسى لمتاعبنا كنا نفرح لركنه العائلي الهادىء حيث يكتب ويرسم ويبدع ونشعر أن ولديه فايز وليلى والرائعة آني من أفراد أسرتنا الكبيرة، نحن الذين يربطنا أننا:

«**نتعاون لنضع نصل الصدق الجارح على رقابهم**»، رقاب جلادي أسرتنا الكبيرة.

٨ ـ من الرفض بدأ غسان، الرفض الحقيقي الفذ:

«**حياتي جميعها كانت سلسلة من الرفض ولذلك استطعت أن أعيش. لقد رفضت المدرسة. ورفضت الثروة ورفضت الخضوع. ورفضت القبول بالأشياء**».

وذلك الرفض كله كان درباً لاختيار الانتماء الواعي العظيم الذي هو تتويج للتناقضات السابقة كلها بحيث تنتفي النظرة السطحية للأمور التي تصورها لنا على أنها تناقضات جوهرية، وتكتمل لوحة الفسيفساء النفسية على نحو مدهش، وكما عبر عنه غسان:

«**إنني أتحدث عن وجود أكثر تعقيداً من ذلك وأكثر عمقاً. ماذا أقول لك، وكيف أشرح لك الأمور؟ دعيني أقول لك كيف: أمس كنت أُذوِّب شمعة فوق زجاجة، أتلهى بهذه اللعبة التي يكون فيها الإنسان شيئاً فوضوياً وغامضاً من زجاجة وقضيب شمع، وكان ذوب الشمع قد كسى جسد الزجاجة بأكمله تقريباً، وفجأة، سقطت نقطة من الشمع الذائب دون إرادة مني، وتدحرجت بجنون فوق تلال الشمع المتجمد على سطح الزجاجة، واستقرت في ثغرة لم أكن قد لاحظتها من قبل، وتجمدت هناك فجعلت ثوب الشمع بأكمله يتماسك من تلقائه**».

ولكن الأمر لم يكن عشوائياً. ففي الخلفية كان هنالك إنسان يؤمن بأن: «**هنالك رجال لا يمكن قتلهم إلا من الداخل**». وهكذا يستعصي غسان على القتل منذ تماسك الداخل كما يستعصي أمثاله على الموت سواء كانوا من نوع الشهداء مع وقف التنفيذ أو كانوا من نوع الشهداء مع التنفيذ.

وغسان لا يبالي بالموت بقدر ما يعي عبثية الحياة، لكن العبث يقوده إلى محاولة صنع المصير:

«إن الدنيا عجيبة، وكذلك الأقدار. إن يداً وحشية قد خلطت الأشيــاء في السماء خلطاً رهيباً فجعلت نهـايات الأمـور بدايــاتها والبدايات نهايات.. ولكن قولي لي: ماذا يستحق أن لا نخسره في هذه الحياة العابرة؟ تدركين ما أعني.. إننا في نهاية المطاف سنموت».

ولكن غسان عاش لحظات نصر ثورية جميلة، منها زيارتـه لغزة ولقاؤه بالمناضلين والناس هناك:

«إنني معـروف هنا، وأكـاد أقول (محبـوب) أكثر ممـا كنت أتوقع، أكثر بكثير. وهذا شيء في العادة، يذلني، لأنني أعرف أنه لن يتاح لي الوقت لأكون عند حسن ظن الناس، وأنني في كل الحالات سأعجز في أن أكون مثلما يتوقعون مني. طوال النهار والليل أستقبل الناس، وفي الدكاكين يكاد الباعة يعطونني ما أريد مجاناً، وفي كل مكان أذهب إليه أستقبل بحرارة تزيد شعوري ببرودة أطرافي ورأسي وقصر رحلتي إلى هؤلاء الناس وإلى نفسي. إنني أشعر أكثر من أي وقت مضى في أن كل قيمة كلماتي كانت في أنها تعويض صفيق وتافه لغياب السلاح وأنها تنحدر الآن أمام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه، وذلك كله يشعرني بغـربة تشبه الموت وبسعادة المحتضر بعد طول إيمان وعذاب، ولكن أيضاً بذل من طراز صاعق».

هذا هو غسان المتواضع الفذ المناضل. (يبدو أنني أكاد انزلق إلى فخ الرثاء الرومانسي. أعيدي رأسك إلى موضعه يا امرأة وتابعي الكتابة بحياد).

أجل، يوم قرأت هذه الكلمات أحسست بشيء يشبه المطر داخل حلقي، فمن غسان كنت قد سمعت للمرة الأولى بالمقاومة بصوت هامس يشبه الصلاة، وكان رائعاً أن أسمع عبره صدى الهمس رعـداً يتنامى في القلوب والسواعد.

٩ ـ ذلك الرجل الذي وجد «الهدف» ظل فريسة أوجاع جسدية:

«إن النقرس يفتك بي مثل ملايين الإبر الشيطانية» «إنني مريض حقاً. لا أريد أن أشعرك بأي قلق علي (إذا كان ذلك ممكناً)، ولكن الغرفة تدور الآن، وكالعادة أحتاج كما أعتقد إلى نوم كثير».

حسناً، والآن لنستعرض أسلوبه في مداواة النقرس والسكري:

«حولت صدري إلى زجاجة معبأة بالدخان المضغوط، دخنت ٦ علب وأمضيت النهار التالي أسعل وأدخن وأسعل وأدخن من جديد، وأمس ليلاً كان جسدي قد تعب من هذه اللعبة واستسلم أمام عنادي، وهكذا قمت فسهرت عند بهاء(*)، ثم اقتادني الأصدقاء بعد ذلك إلى الليل ونمت مع طلوع الصباح».

كان يعرف أنه لا شفاء لمرضه وإنما مجرد مصالحة معه في الموقع الوسط، وهو يكره الحلول الوسط:

«ولكن في الوسط؟ في الوسط الذي تعرفين أنني لا أستطيعه»؟

١٠ ـ ولأن الطرف الثاني للمشرط الذي أراد به أن يصنع الحياة هو قلمه فقد كان نضاله الآخر التوأم في حقل الكتابة، ولم يكن الكفاح أقل صعوبة، وقبل أن تولد مجلته كان يتمزق أحياناً على هذا النحو:

«تسألين عن روايتي؟ لم أكتب شيئاً. أعمل في الصحافة كما كان يعمل العبيد العرايا في التجديف. لدي فكرة لمسرحية».

ثم تأتي بعض الانفراجات رغم كثافة الغيوم ـ أو بسببها!

«عبر هذا الازدحام الذي لا مثيل له (مؤتمر الكتاب الافرو آسيوي) أنهمك كالمصاب بالصرع في كتابة المسرحية التي حدثتك عنها. أسميتها (حكاية الشيء الذي جاء من الفضاء وقابل رجلاً مفلساً). وأمس اقترحت لنفسي عنواناً آخر (النبي والقبعة) على أساس أن القبعة تستر رأس الرجل من الخارج والنبي يستره من

(*) أحمد بهاء الدين.

الداخل.. وما زلت في حيرة، ولكن المسرحية تمشي على ما يرام. ما رأيك»؟

١١ ـ غسان الذي كان يقاتل بعيداً عن أرضه من أجل أرضه المستباحة وحبه الهارب يرسم صورته:

«**معذباً وبعيداً عن جواده وقلعته، يقاتل بكل دمائه النبيلة، ناجحاً في أن يتجنب التلطيخ بوحل الميدان الشاسع. كان يعرف أن التراجع موتٌ، وأن الفرار قدر الكاذبين، إنه فارس اسبارطي حياته ملتصقة على ذؤابة رمحه، يعتقد أن الحياة أكبر من أن تعطيه، وأنه أكبر من أن يستجدي، ولكنه يريد أن يعطي بشرف مقاتل الصف الأول. ليس لديه ما يفقده ورغم ذلك فهو يعرف أنه إذا فقد هذا الشيء الوحيد الذي يعتز به فإنه سيفقد نفسه**»(١).

١٢ ـ روى لي غسان مرة أن والده حشا جرح صديقه بغبار العنكبوت جمعه من ثقوب سور عكا، قال يومها ان الغبار أوقف النزيف.

فلنأمل بمفعول الغبار؟ لا. غبار الأيام سيترسب فوق الجرح، لكنه سيكون مثل جراح روحنا كلها: تلتهب كلما هبت عليها الريح. ريح الذاكرة وريح النسيان. تراني سقطت أخيراً في «خطيئة الحزن»؟ حسناً من كان منكم بلا خطيئة، فلنرمه بحجر!...

---

(١) جميع المقتطفات الواردة في مقالي هذا في **الهدف** مأخوذة من الرسائل الموجودة في هذا الكتاب.

محاولة تقديم ثانية:

وفاء لعهد قطعناه

نعم. كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني... وكـان له وجـه طفل وجسد عجوز.. عينان من عسل وغمازة جذلة لطفل مشاكس هارب من مدرسة الببغاوات، وجسد نحيل هش كالمركب المنخور عليه أن يعاجله بإبر «الأنسولين» كي لا يتهاوى فجأة تحت ضربات مرض السكري: هدية الطفولة لصبي حرم من وطنه دونما ذنب... لم يكن فيه من الخارج ما يشبه صورة البطل التقليدية: قامـة فارعـة.. صوت جهـوري زجاجي. لامبالاة بالنساء (إلى آخر عدة النضال) لأنه كان ببساطة بطلاً حقيقياً... والأبطال الحقيقيون يشبهون الرجال العاديين رقةً وحزناً لا نجوم السينما الهوليوودية الملحمية... غير العادي في غسان كان تلك الروح المتحدية. النار الداخلية المشتعلة المصرة على مقاومة كل شيء، وانتزاع الحياة من بين منقار رخ القدر... نار من شجاعة تتحدى كل شيء حتى الموت..

* * *

نعم.كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني جسده المهترىء بالنقرس لا يرسمه جيداً ولا يعبر عنه.. ولكن حرفه يفعل ذلك باتقان.. وحين أقرأ رسائله بعد عقدين من الزمن أستعيده حياً.. ويطلع من حروفه كما يطلع الجني من القمقم حاراً ومرحاً صوته الريح.. يقرع باب ذاكرتي ويدخل بأصابعه المصفرة بالنيكوتين وأوراقه وإبرة (أنسولينه) وصخبه المرح.. ويجرني من يدي لنتسكـع معاً تحت المطـر.. ونجلس في المقاهي مـع الأصدقاء.. ونتبادل الموت والحياة والفرح بلا أقنعة، والرسائل أيضاً..

* * *

نعم. كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني التصق بعيني زمناً كدمعة

نقية، وانتصب فوق أفقي كقوس قزح... ووفاء لضوء عرفناه معاً، دعوتكم مرة لمشاركتي في الاحتفال بعيد ميلاده الذي يتصادف في شهر نيسان في «لحظة حريتي» بمجلة الحوادث ولبيتم، وها أنا أدعوكم اليوم إلى مهرجان من الألعاب النارية والنجوم هي رسائله..

والوفاء ليس فقط لعاطفتي الغابرة المتجددة أبداً نحوه، بل وفاء لرجل مبدع من بلادي اكتمل بالموت لأنه كان أكثر صدقاً من أن يسمح له عدوه بالحياة والكتابة والاكتمال بالعطاء... موت غسان المبكر خسارة عربية على الصعيد الفني لا تعوض، لم يمهلها العدو وقتاً لتأخذ مداها من التأجج والسطوع... والأجمل من ذلك كله أنه كان مناضلاً حقيقياً ومات فقيراً.. (وتلك ظاهرة في زمننا الموسخ بالخلط بين الثروة والثورة)... إنه رجل لم يتلوث بالمال ولا بالسلطة ولا بالغرور وظل يمثل النقاء الثوري الحقيقي.

* * *

نعم. كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني أشعر دائماً بالرغبة في إطلاقه كرصاصة على ذاكرة النسيان العربية.. والأسباب كثيرة وعديدة، وأهمها بالتأكيد أن غسان كان وطنياً حقيقياً وشهيداً حقيقياً وتكريمه هو في كل لحظة تكريم للرجال الأنقياء الذين يمشون إلى موتهم بلا وجل لتحيا أوطانهم، ولتخرج «القيم» و«المفاهيم» من صناديق اللغة الرثة، إلى عظمة الفعل الحي... لا أستطيع الادعاء ـ دون أن أكذب ـ أن غسان كان أحب رجالي إلى قلبي كامرأة كي لا أخون حقيقتي الداخلية مع آخرين سيأتي دور الاعتراف بهم ـ بعد الموت ـ وبالنار التي أوقدوها في زمني وحرفي.. ولكنه بالتأكيد كان أحد الأنقياء القلائل بينهم.

* * *

نعم. كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني، ويعز عليَّ أن أرى الغبار يتراكم فوق وجهه، والعنكبوت يغزل خيوطه ببطء ـ ولكن باستمرار ـ فوق حروف اسمه بالرغم من الجهود المباركة للجنة تكريمه.. أخشى أن يغوص في لجة النسيان هو وكل ما كان يمثله.. لا جائزة أدبية باسمه، ولا

شارع في مدينة عربية يخلده (أرجو أن أكون مخطئة وقليلة الإطلاع)... ولا مهرجان أدبياً يكرسه... أفرح حين أرى وفياً ليوسف الخال هو ـ رياض نجيب الريس ـ يحمي اسمه من عث النسيان، وأتساءل: أين «جائزة غسان كنفاني» للرواية مثلاً؟ أم أن عليه أن يقرع جدران الخزان؟.. غسان ليس ملكاً لمنظمة معينة فهو طفل الأمة العربية كلها وأحد الذين جسدوا أنبل ما فيها.. أفكر به، وقلبي على الحبيبة الفلسطينية الأخرى ولكن المكفنة بنسيان شبه شامل: سميرة عزام.. منذ غادرت الكنيسة حيث عزيت بها لم أر أحداً من الذين عرفوا وهج إبداعها يحاول بعث ذلك الضوء في نجمة... لم أسمع بأستاذ جامعي منهم كلف طالبة أو طالباً بإعداد رسالة جامعية عنها توثق لها وتحفظ ذكراها إلا فيما ندر.. والاحتفال بميلاد غسان كنفاني في صفحتي الأسبوعية بالحوادث ذات مرة، وبرسائله اليوم، هذا الاحتفال جزء من الاحتجاج على ذاكرة النسيان العربية... لا أريد أن أرى الثلج يهطل فوق شاهدة قبره وأمثاله ويغطيها ببرود الجحود.. فقد كان وطنياً من نوع فريد.. لم يعرف المساومة ولا الرياء ولا رقصة التانغو السياسية: خطوة إلى الأمام، وخطوتان إلى الوراء...

* * *

نعم. كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني... والأستاذ جهاد فاضل لم يفترِ عليَّ حين تحدث ذات يوم عن رسائل متبادلة بيننا سأقوم بنشرها دون حذف حرف منها... ولم يبح بسر شخصي حين خط سطوره.. على العكس، كنت أريد أن يكتب ما كتب، على أمل أن يتصل بي «الشخص» الذي ما تزال رسائلي بحوزته.. فالذي حدث أن الشهيد غسان قتل والعلاقات الديبلوماسية بيننا على أفضل حال، ولم يحدث ما يستدعي قطع العلاقات وسحب الرسائل والسفراء.. وبعبارة أخرى: رسائله عندي ورسائلي عنده كما هي الحال لدى متبادلي الرسائل كلهم!!..

وانتهز الفرصة لأوجه النداء إلى من رسائلي بحوزته (أو

بحوزتها).. نداء أشاركهم فيه محبة غسان وأرجوهم جعل حلم نشر رسائلنا معاً ممكناً كي لا تصدر رسائل غسان وحدها حاملة أحد وجوه الحقيقة فقط بدلاً من وجهيها[1]..وأنا والحق يقال لا أدري أين رسائلي إليه.. كل ما أعرفه هو أن تلك الرسائل العتيقة لم تعد ملكاً لأحد، وإنما تخص القارىء العربي كجزء من واقعه الأدبي والفكري على لسان مجنونيّ حبر، صار أحدهما غباراً مضيئاً منذ عقدين من الزمن، وتستعد الأخرى لمهرجان التراب منذ ولادتها.. إنها رسائل تدخل في باب الوثائق الأدبية أكثر مما تدخل في باب الرسائل الشخصية بعدما انقضى أكثر من ربع قرن على كتابتها، فخرجت من الخاص إلى العام، باستشهاد صاحبها قبل عشرين سنة.

* * *

نعم. كان ثمة رجل اسمه غسان كنفاني.. ونشر رسائلنا معاً هو أيضاً إقلاق لراحة الرياء ولنزعة التنصل من الصدق.. وهي نزعة تغذيها المقولات الجاهزة عن «التقاليد الشرقية» المشكوك أصلاً في صحتها... أنا من شعب يشتعل حباً، ويزهو بأوسمة الأقحوان وشقائق النعمان على صدره وحرفه.. ولن أدع أحداً يسلبني حقي في صدقي.. وإذا كانت جدتي المسلمة - مثلي - ولادة بنت المستكفي قد فتحت خزائن قلبها منذ تسعة قرون تقريباً، فلمَ أخشى أنا ذلك في زمن المشي فوق سطح القمر.. ولماذا يكون من حقها أن تقول في ابن زيدون:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي
فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

---

(١) نشرت هذا النداء للمرة الأولى بتاريخ ١٩٨٩/٤/٢١ في مجلة **الحوادث** الصادرة في لندن، وتكرر نشره مرات على لسان أدباء ونقّاد آخرين قبل إصداري للطبعة الأولى من الرسائل. ولم يستجب أحد للنداء حتى لحظة صدور هذه الطبعة الثانية.

فلماذا لا أجرؤ على نشر رسائلي ورسائله دونما تبديل أو تعديل ـ بغض النظر عما جاء فيها أو لم يجىء ـ؟..

للحقيقة سطوة ترفض مجاملة الزيف وركوعاً مني لسطوتها سأنشر رسائل زمن الحماقات الجميلة دون تعديل أو تحوير، لأن الألم الذي قد تسببه لآخرين عابرين مثلي هو أقل من الأذى اللاحق بالحقيقة إذا سمحت لقلمي بمراعاة الخواطر.. والحقيقة وحدها تبقى بعد أعوام حين أتحول وسواي من العابرين إلى تراب كغسان نفسه.. ولذا قدمت هذا الاعتبار على أي اعتبار آخر ولسان حالي يقول: قد لا أريد أن أتذكر كي لا أجرح الحاضر، ولكنني لا أستطيع أن أنسى كي لا أخون ذاتي والحقيقة معاً...

وريثما أحصل على رسائلي إليه فانشرها[١] ورسائله معاً، أكتفي مؤقتاً بنشر رسائله المتوافرة، بصفتها أعمالاً أدبية لا رسائل ذاتية أولاً ووفاء لوعد قطعناه على أنفسنا ذات يوم بنشر هذه الرسائل بعد موت أحدنا، ولم يدر بخلدي يومئذ أنني سأكون الأمينة على تنفيذ تلك الرغبة الكنفانية ـ السمانية المشتركة.

* * *

نعم. كان ثمة رجل يدعى غسان كنفاني. وكان يعرف أن حبي للحقيقة يفوق أحياناً حتى حبي لذاتي، ومن هنا كانت الحرب التي لن تهدأ يوماً بيني وبين المؤسسات المكرسة لرعاية الرياء الاجتماعي و(تطييب خاطره).. وإذا كنت قد جاملتها يوماً فبالمقدار الذي يسمح لي بالبقاء على قيد الحياة لا أكثر، وعلى طريقة (غاليليو) الذي أعلن أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس ـ لأنها ببساطة الحقيقة

(١) ليست لدي مسودات عن تلك الرسائل الغابرة، ولا «فوتوكوبي» ـ استعمال الناسخات لم يكن شائعاً يومذاك ـ. الأمل الوحيد في نشر رسائلي هو في أن يتكرّم مَنْ بحوزتهم الرسائل بالإفراج عنها.

وبغض النظر عمن تزعزع جذور حياته كشفها ـ ولكنه عاد وسحب مرغماً كلامه وهو يهمس (ولكنها ما تزال تدور...)..

ونشر رسائل غسان كنفاني فعل رفض للخضوع لزمن الغبار الذي يكاد يتكدس في الحناجر، وعصر التراجع صوب أوكار تزوير المشاعر البشرية الجائعة أبداً إلى حرية لا تؤذي وإذا فعلت فعلى طريقة مبضع الجراح لا خنجر قاتل الظلام...

ثمة أديبة عربية نشرت رسائل حبيبها الشاعر خليل حاوي بعدما حذفت اسمها منها (واحتراماً لرغبتها لن أذكره) كما شطبت بنفسها بعض السطور التي وجدتها محرجة في حق سواها على الأرجح.. ولم تنج من اللوم لأنها تجنت على الأمانة الأدبية.. وأنا أعتقد أن العتاب لا يجب أن يوجه إليها، بل إلى القيم التقليدية السائدة التي تجعل سلوكاً كهذا مفهوماً ـ بل ومدعاة للاحترام ـ.. والهجوم لا يجوز أن يوجه للأديبة التي نفذت تعاليم مجتمعها، بل لذلك المجتمع المهترىء بالزيف الذي يجد في أكبر حقائق الحياة عيباً يجب التنصل منه في حجرات السر المظلمة.. وليس من حقنا معاتبة تلك الأديبة على مزاجها الشخصي في المقاومة، ولا الطلب من جميع الأديبات لعب دور العين التي تقاوم المخرز.. بل علينا أولاً ضرب اليد التي تمتد بأصابعها السكاكين لتقص أغصان أية شجرة تومض فيها شرارات الحقيقة.. كي لا تضرم نار عشق الصدق في غابات القلوب المتعطشة إلى حرية الضوء، التائهة أمام المعادلة المستحيلة: كيف نضيء دون أن نحترق؟!..

* * *

نعم. كان ثمة رجل يدعى غسان كنفاني.. وتسديد طعنة إلى «جمعيات الرياء المتحدة» أمر كان سيطرب له غسان،(كما كان سيفرح بإحياء ذكر أي شهيد نقي يستحق من ذاكرتنا حيزاً أكبر من الذي رصدناه له). ولعل ذلك أحد الأسباب التى دعتنا يوماً للعهد الذي قطعناه

على أنفسنا بنشر رسائلنا معاً[1] وهو عهـد ربما كنت سـأتملص من تنفيذه أو أؤجله لو لم أشعر أن هذه الرسائل خرجت من الخاص إلى العام بمرور الزمن.

ولكن ثمة عوامل أخرى أيضاً تحثني على نشر رسائل كنفاني دونما تردد، منها مثلاً رسم شخصية «الفدائي» من الداخل.. أي مناضل في أي وطن..

ثمة ميل دائم في الأدب العربي بالذات لرسم «المناضل» في صورة «السوبرمان».. ولتحييده أمام السحر الأنثوي وتنجيته من التجربة.. وفي رسائل غسان صورة للمناضل من الـداخل قبـل أن يدخـل في سجن الأسطـورة ويتم تحويلـه من رجـل إلى تمثـال في الكواليس المسرحيـة السياسية...

وهي صورة أعتقد أن بوسعها أن تغني أدب الجيل الطالع عامة وأدب المقاومة خاصة وتبعده عن هوة الضوضاء الخطابية المهرجانيـة السياسية التي يلقى الإبـداع فيها مصرعـه بعدمـا حلت الإنشائيـات والرطانات المدرسية المزودة بمكبرات الصوت محل دقات القلب. وبهذا المعنى تبدو لي قراءة رسائل غسان كنفاني ضرورة للروائيين الشباب..

---

(١) كان غسان كنفاني فخوراً بإبداعه في حقل النصوص الشعرية الوجدانية. ولعله ـ بهذا المعنى ـ كان يعتبر رسائله لي امتداداً لأعماله الأدبية، وربما لذلك كان يقوم بنشرها في زاويته «أوراق خاصة» في جريدة **المحرر** بين عامي ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧، وفي ملحق جريدة **الأنوار** ـ الصفحة الثانية التي كان يكتبها بين عامي ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ (ويجد القارىء نموذجاً مصوراً لها في الصفحة ٩٤ من هذا الكتـاب). وهذه الـرسائـل لم تجمع في «الأعمال الكاملة لغسان كنفاني» حتى الآن ولا تزال شبه مجهولـة رغم كثرتهـا كمّاً وأهميتها نوعاً كجزء من نتاجه الأدبي الفني المتنوع. ونجده في رسائله إليّ في هذا الكتاب يستشهد ببعض ما كتبه لي ونشره في **المحرر** وملحق **الأنوار** كما في قوله في الصفحة ٥٤: «أقول لك.. ما قلته اليوم لك على صفحات الجريدة»، ويورد بعدها استشهاداً من رسالته المنشورة. والكتاب حافل بتلك الاستشهادات من نصوصه الشعرية الـوجدانيـة تلك، وبوسع القارىء العودة إلى الصفحات ٤١ و٤٤ و٤٨ و٥٤ و٧٣ من هذا الكتاب مثلاً.

حيث يطلعون على صورة حية لحياة شهيد حقيقي بعيداً عن أقنعة التزوير.. وأعتقد أن «أنسنة» فكرة الشهيد لا تؤذي القضية، بل على العكس من ذلك، تساعد كل إنسان على اكتشاف العملاق الذي يقطنه مهما بدا لنفسه أو للذين حوله مريضاً وضعيفاً - بالمفاهيم التقليدية - وعاشقاً مهزوماً كسره الحب حيناً وملأه بالزهو والاعتداد أحياناً .. سنكتشف في رسائل غسان أن كلاً منا يستطيع أن يكون مهماً لوطنه إذا تبع صوت قلبه بلا وجل حتى النهاية وتخلص من الإزدواجية بين المشاعر والسلوك قدر الإمكان، فإذا أحب وطنه حتى الموت مارس ذلك الحب سلوكاً، لا خطباً طنانة على المنابر فقط.. بهذا المقياس أرى كنفاني شهيداً نموذجياً بالمعنى العالمي والإنساني للكلمة ورسائله تجسد هذا النقاء الثوري البعيد عن «التبتل الاستعراضي» والفساد السري، ولعبة الرصانة الديكورية والأقنعة اللامقنعة..

* * *

الوفاء للعهد على نشر هذه الرسائل بعد خروجها من الخاص إلى العام بحيث صارت وثيقة أدبية. التأسيس لنوع أدبي منتشر في الدنيا بكثرة ويكاد يكون معدوماً عندنا هو أدب المراسلات غير الرسمية، مراسلات الاعتراف: اللون الناقص شبه المفقود في لوحة الأدب العربي. عشق الحقيقة. إحياء ذكرى غسان. الإعلان عن عاطفة نبيلة تزويرها يدعو إلى الخجل لا كشفها. تكريم الشهيد... أهذه وحدها تقف خلف رغبتي في نشر رسائل كنفاني؟.

ها أنا أستجوب نفسي في لحظة صدق واضبطها وهي تكاد تتستر على عامل نرجسي لا يستهان به: الفخر بحب رجل كهذا أهدى روحه لوطنه وأنشد لي يوماً ما معناه:

«مولاي وروحي في يده إن ضيعها سلمت يده»..

وأعتقد أن كل أنثى تزهو (ولو سراً) بعاطفة تدغدغ كبرياءها الأنثوي.. وأنا بالتأكيد لا أستطيع تبرئة نفسي من ذلك جزئياً!.. ولكني في

الوقت ذاته أتساءل: إلى أي مدى تضيف رسائل غسان إلى صورته في الأذهان (أو تنقصها)؟.. وأجد بكل إخلاص أن هذه الرسائل تمنح صورته بعداً إنسانياً جميلاً أخاذاً يذكر بشخصية طالما أحبها غسان هي شخصية «الدكتور جيفاكو» التي أبدعها الأديب الروسي «باسترناك» وكان غسان يحبها كثيراً (قدر كرهي لشخصية حبيبته لارا في الرواية وكانت مستسلمة تركت قدرهما يدمرهما معاً بمعنى ما). ولعل غسان كان يعي ذلك حين طلب مني أن أعاهده على نشر تلك الرسائل ذات يوم بعيد كأنه البارحة. إنها وجهه الحقيقي أو أحد وجوهه الأصيلة.

* * *

نعم. كان ثمة رجل يدعى غسان كنفاني. وأعترف لذكراه أن فكرة إحراق الرسائل راودتني مراراً، وأنا أنشد مع الجوقة ضد المشي بين القبور هرباً من الثمن الذي يدفعه كل من يجرؤ على إقلاق راحة الرياء.. في ممالك الأقنعة واللاوفاء.

ولكن للرسالة سحراً أبيض لا أسود.. يتحول فيها المرء إلى رقعة ملساء نقية اسمها الورقة، وتخط الروح فوقها رموز الصدق..

الرسالة جموح القلب إلى المستحيل، وشهية الأشواق إلى تقمص اللغة حتى البقاء. والمظروف أحد أكفان لحظات الخلود الصغيرة، حين لا يخطر ببال المرء أنه سيتحول من رجل إلى طابع بريد!.. ومن عاشق إلى شهيد..

وإلى جانب النرجسية الصغيرة التي لا يخلو منها أحد (بعضنا يعترف وبعضنا يكابر)، ثمة شعور بالجميل أحمله نحو غسان الصديق وسبق لي أن عبرت عنه في حواري مع الدكتور غالي شكري - الذي صدَّر به كتاباً نقدياً له عني - منذ خمسة عشر عاماً.

وهو شعور بالجميل لا يزيده الزمن إلا تأججاً وسطوعاً.. ذات يوم، كنت وحيدة ومفلسة وطريدة، وحزينة، فشهر بعض (الأصدقاء) سكاكينهم بانتظار سقوط (النعجة) - على عادة الدنيا معنا... يومها وقف

كنفاني إلى جانبي وشهر صداقته.. كنت مكسورة بموت أبي، ومحكومة بالسجن لذنب أفخر به، ولكن غسان أنجدني بجواز سفر، ريثما صدر أوائل السبعينات عفو عام شملني..

* * *

نعم. كان ثمة رجل يدعى غسان كنفاني. ورسائله تستعصي على التجزئة ـ باستثناء المقاطع السياسية[١] منها التي سبق أن نشرتها في المجلة التي أسسها بنفسه ـ تخليداً لذكراه في مناسبة سابقة..

أما ما تبقى من الرسائل، فأترككم معها دون أن أنسى التعبير عن أسفي لحريق بعضها (بعض رسائل عام ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩)[٢] يوم احترق بيتي في بيروت خلال الحرب مطلع عام ١٩٧٦. ولو لم أكن قد احتفظت بهذه الرسائل في لندن ـ مصادفة ـ لذهبت هي أيضاً طعمة للنيران.. وكل ما أتمناه هو أن أرى رسائلنا كلها منشورة معاً كما حلمنا يوماً.. رسائلي ورسائله، حتى تلك التي احترقت!...

ولعلي كُنت حنثت بعهدي لغسان على نشر تلك الرسائل، لو لم أجد فيها وثيقة أدبية وسيرة ذاتية نادرة الصدق لمبدع عربي، مع الوطن المستحيل والحب المستحيل... وثيقة ثرية بأدب الاعتراف الذي تفتقر إليه مكتبتنا العربية. والرسائل بهذا المعنى تسدّ نقصاً سبقتنا الأمم الأخرى إلى العطاء في مجاله، وتؤسِّس لنوعٍ جميل من الأدب ما زلنا نتهيب أمام بحاره، ومَنْ أجدر من القلب العربيِّ الثري للخوض في لجته.

---

(١) بوسع القارىء مطالعة رسائله الآن كاملة في هذا الكتاب.

(٢) ربما كان غسان كنفاني يحتفظ بمسودات عن رسائله إليّ. وبذلك يصير نشر بقية الرسائل ممكناً إذا تكرم أحدٌ بهذه البادرة الأدبية النبيلة.

انشريها، لا تتركيني أموت!

عنـد كـوبي المكسـور، حـزمـة أوراق
وعمـر في دفتيـهـا شَمِيـتُ
احمليـهـا، مـاضي شبـابـك فيـهـا
والفتـون الـذي عليـه شَقِيـتُ
اقـرئيهـا، لا تحجبي الخلـد عنـي
انشريـهـا، لا تتـركينـي أمـوتُ

عمر أبو ريشة

□ □ □

ذائع من سره ما استودعك

ودع الصبـر محـب ودعـك
ذائع مـن سره مـا استـودعـك
يـا أخـا البـدر سنـاء وسنـى
حفظ الله زمـانـاً اطلـعـك
إن يطـل بـعـدك ليـلي فلكـم
بـت أشكـو قصر الليـل مـعـك

ولادة بنت المستكفي

رسالة غير مؤرخة ـ لا أذكر التاريخ!
لعلها أول رسالة سَطّرَها لي

غادة..

أعرف أن الكثيرين كتبوا لك، وأعرف أن الكلمات المكتوبة تخفي عادة حقيقة الأشياء خصوصـاً إذا كانت تُعـاش وتُحسّ وتُنزف عـلى الصورة الكثيفة النادرة التي عشناها في الأسبوعين الماضيـين.. ورغم ذلك، فحين أمسكت هذه الورقة لأكتب كنت أعرف أن شيئاً واحداً فقط أستطيع أن أقوله وأنا أثق من صدقه وعمقه وكثافته وربما مـلاصقته التي يخيل إلي الآن أنها كانت شيئاً محتوماً، وستظل، كالأقـدار التي صنعتنا: إنني أحبك.

الآن أحسها عميقة أكثر من أي وقت مضى، وقبل لحظة واحدة فقط مررت بأقسى ما يمكن لرجل مثلي أن يمر فيه، وبدت لي تعاساتي كلها مجرد معبر مزيف لهذه التعاسة التي ذقتها في لحظة كبريق النصل في اللحم الكفيف.. الآن أحسها، هذه الكلمة التي وسخوهـا، كما قلتِ لي والتي شعرت بأن علي أن أبذل كل ما في طاقة الرجل أن يبذل كي لا أوسخها بدوري.

إنني أحبك: أحسها الآن والألم الذي تكرهينـه ـ ليس أقل ولا أكثر مما أمقته أنا ـ ينخر كل عظامي ويزحف في مفاصلي مثـل دبيب الموت. أحسها الآن والشمس تشرق وراء التلة الجرداء مقابل الستارة التي تقطّع أفق شرفتك إلى شرائح متطاولة.. أحسها وأنا أتذكـر أنني أيضاً لم أنم ليلة أمس، وأنني فوجئت وأنا أنتظر الشروق على شرفة بيتي أنني ـ أنا الذي قاومت الدموع ذات يوم وزجرتها حين كنت أُجلد ـ

أبكي بحرقة. بمرارة لم أعرفها حتى أيام الجوع الحقيقي، بملوحة البحار كلها وبغربة كل الموتى الذين لا يستطيعون فعل أيما شيء.. وتساءلت: أكان نشيجاً هذا الذي أسمعه أم سلخ السياط وهي تهوي من الداخل؟

لا. أنت تعرفين أنني رجل لا أنسى وأنا أعْرَف منك بالجحيم الذي يطوق حياتي من كل جانب، وبالجنة التي لا أستطيع أن أكرهها، وبالحريق الذي يشتعل في عروقي، وبالصخرة التي كتب عليّ أن أجرّها وتجرني إلى حيث لا يدري أحد.. وأنا أعرف منك أيضاً بأنها حياتي أنا، وأنها تتسرب من بين أصابعي أنا، وبأن حبك يستحق أن يعيش الإنسان له، وهو جزيرة لا يستطيع المنفيّ في موج المحيط الشاسع أن يمر بها دون أن... ورغم ذلك فأنا أعرف منك أيضاً بأنني أحبك إلى حد أستطيع أن أغيب فيه، بالصورة التي تشاءين، إذا كنت تعتقدين أن هذا الغياب سيجعلك أكثر سعادة، وبأنه سيغير شيئاً من حقيقة الأشياء.

أهذا ما أردت أن أقوله لك حين أمسكت الورقة؟ لست أدري.. ولكن صدقيني يا غادة أنني تعذبت خلال الأيام الماضية عذاباً أشك في أن أحداً يستطيع احتماله، كنت أجلد من الخارج ومن الداخل دونما رحمة وبدت لي حياتي كلها تافهة، واستعجالاً لا مبرر له، وأن الله إنما وضعني بالمصادفة في المكان الخطأ لأنه فشل في أن يجعل عذابه الطويل الممض وغير العادل لهذا الجسد، الذي أحتقر فيه قدرته غير البشرية على الصلابة، ينحني ويموت..

إن قصتنا لا تكتب، وسأحتقر نفسي لو حاولت ذات يوم أن أفعل، لقد كان شهراً كالإعصار الذي لا يُفهم، كالمطر، كالنار، كالأرض المحروثة التي أعبدها إلى حد الجنون وكنت فخوراً بك إلى حد لمت نفسي ذات ليلة حين قلت بيني وبين ذاتي أنك درعي في وجه الناس والأشياء وضعفي، وكنت أعرف في أعماقي أنني لا أستحقك ليس لأنني لا أستطيع أن أعطيك حبات عينيّ ولكن لأنني لن أستطيع الاحتفاظ بك إلى الأبد.

وكان هذا فقط ما يعذبني.. إنني أعرفك إنسانة رائعة، وذات عقل لا يصدق وبوسعك أن تعرفي ما أقصد: لا يا غادة لم تكن الغيرة من الآخرين.. كنت أحسك أكبر منهم بما لا يقاس، ولم أكن أخشى منهم أن يأخذوا منك قلامة ظفرك. لا يا غادة، لم يكن الادعاء والتمثيل والزيف فذلك الشيء الوحيد الذي لا أستطيع أبداً إتقانه ولو أتقنته لما كنت الآن في قاع العالم.. لا يا غادة.. لم يكن إلا ذلك الشعور الكئيب الذي لم يكن ليغادرني، مثل ذبابة أطبق عليها صدري، بأنك لا محالة ستقولين ذات يوم ما قلتِه هذه الليلة.

إن الشروق يذهلني، رغم الستارة التي تحوله إلى شرائح وتذكرني بألوف الحواجز التي تجعل من المستقبل ـ أمامي ـ مجرد شرائح.. وأشعر بصفاء لا مثيل له مثل صفاء النهاية ورغم ذلك فأنا أريد أن أظل معك، لا أريد أن تغيب عني عيناك اللتان أعطتاني ما عجز كل شيء انتزعته في هذا العالم من إعطائي. ببساطة لأني أحبك. وأحبك كثيراً يا غادة، وسيُدَمَر الكثير مني إن أفقدك، وأنا أعرف أن غبار الأيام سيترسب على الجرح ولكنني أعرف بنفس المقدار أنه سيكون مثل جروح جسدي: تلتهب كلما هبت عليها الريح.

أنا لا أريد منك شيئاً وحين تتحدثين عن توزيع الانتصارات يتبادر إلى ذهني أن كل انتصارات العالم إنما وزِعَت من فوق جثث رجال ماتوا في سبيلها.

أنا لا أريد منك شيئاً، ولا أريد ـ بنفس المقدار ـ أبداً أبداً أن أفقدك.

إن المسافة التي ستسافرينها لن تحجبك عني، لقد بنينا أشياء كثيرة معاً لا يمكن، بعد، أن تغيّبها المسافات ولا أن تهدمها القطيعة لأنها بنيت على أساس من الصدق لا يتطرق إليه التزعزع.

ولا أريد أن أفقد «الناس» الذين لا يستحقون أن يكونوا وقود هذا الصدام المروّع مع الحقائق التي نعيشها.

.. ولكن إذا كان هذا ما تريدينه فقولي لي أن أغيب أنا. ظلي هنا أنت فأنا الذي تعودت أن أحمل حقيبتي الصغيرة وأمضي..

ولكنني هذه المرة سأمضي وأنا أعرف أنني أحبك، وسأظل أنزف كلما هبت الريح على الأشياء العزيزة التي بنيناها معاً..

غسان

عادة.

أعرف أن الكثيرين كتبوا لك، وأعرف أن الكلمات المكتوبة تخفي عادة حقيقة الأشياء خصوصاً إذا كانت تُعاش وتُحس وتُنزف مع الصورة الكثيفة النادرة التي عشناها في الأسبوعين الماضيين.. ورغم ذلك، فحين أمسكت هذه الورقة لأكتب كنت أعرف أن شيئاً واحداً فقط أستطيع أن أقوله وأنا أثق من صدقه وعمقه وكثافته وربما ملاصقته التي يخيل إلي الآن أنها كانت شيئاً محتوماً، ومستقبلاً، كالأقدار التي صنعتنا: إنني أحبك.

الآن أحسها عميقة أكثر من أي وقت مضى، وقبل لحظة واحدة فقط مررت بأقسى ما يمكن لرجل مثلي أن يمر فيه، وبدت لي تعاساتي كلها مجرد محاولة مزيفة لهذه التعاسة التي ذقتها في لحظة كبرق النصل في اللحم الكثيف.. الآن أحسها، هذه الكلمة التي وسخوها، كما قلت لي، والتي شعرت بأن علي أن أبذل كل ما في طاقة الرجل أن يبذل كي لا أوسخها بدوري.

إنني أحبك: أحسها الآن والألم الذي تكرهينه - ليس أقل ولا أكثر مما احتقرته - ينخر كل عظامي ويزحف في مفاصلي مثل دبيب الموت، أحسها الآن والشمس تشرق وراء التلة الجرداء مقابل الستارة التي تقطع أفق شرفتي إلى شرائح متطاولة.. أحسها وأنا أتذكر أنني لم أنم لحظة واحدة وأنني متوحش وأنا أنتظر الشروق على شرفة بيتي أنا الذي قاومت الدموع ذات يوم ونجحت حين كنت أُجلد - أبكي بحرقة، بمرارة، كما عرفتها أيام الجوع الحقيقي، محرومة الكبار كلهم وبغربة كل الموتى الذين لا يستطيعون فعل أي شيء.. وتساءلت: ألا أملك شيئاً "هذا الذي أسمعه أم ــــخ

البسيط وهي تهوي من الداخل ؟

لا .. انت تعرفين انني رجل لا انسى وانا أعرف منك بالجحيم الذي طوق حياتي من كل جانب ، وبالجنة التي لا استطيع ان اكرهها ، وبالحريق الذي يشتعل في عروقي ، وبالصخرة التي كتب عليّ ان اجرها وتجرني الى حيث لا يدري احد .. وانا أعرف منك ايضاً بأن حياتي [redacted] انا ، وانها تتسرب من بين اصابعي انا ، وبأن حبك يستحق ان يعيش الانسان له ، وهو جزيرة لا يستطيع المنفي في موج المحيط الشاسع ان يمر بها دون ان ... ورغم ذلك فأنا اعرف منك ايضاً بأنني احبك الى حد استطيع ان اغيب فيه ، بالصورة التي تشائين ، اذا كنت تعتقدين ان هذا الغياب سيجعلك اكثر سعادة ، وبانه سيغير شيئاً من حقيقة الاشياء .

أهذا ما اردت ان اقوله لك حين امسكت الورقة ؟ لست ادري .. ولكن صدقيني يا غادة انني تعذبت خلال الايام الماضية عذاباً اشك في ان احداً يستطيع احتماله ، كنت أجلد من الخارج ومن الداخل دونما رحمة وبدت لي حياتي كلها تافهة ، واستحالة لا مبرر له ، وان الله اذ وضعني بالمصادفة في المكان الخطأ لانه فشل في ان يجعل عذابه الطويل المحض وغير العادل هذا الجسد الذي احتقر فيه قدرته غير البشرية على الصلابة يختنق ويموت .

ان تقتلينا لا تكتب ، وسأحتقر نفسي لو حاولت

ذات يوم أن أفعل ، لقد كان سفراً كالاعصار الذي لا
يفهم ، كالمطر ، كالنار ، كالارض المحروثة التي [redacted] اعبدها
الى حد الجنون وكنت فخوراً بك الى حد ملت نفسي ذات ليلة
حين قلت بيني وبين ذاتي انك درعي في وجه الناس والاشياء
وضعفي ، وكنت اعرف في اعماقي انني لا استحقك ليس لانني
لا استطيع ان اعطيك حبات عينيّ ولكن لانني لن استطيع
الاحتفاظ بك الى الأبد .

وكان هذا فقط ما يعذبني .. انني اعرفك انسانة رائعة ،
وذات عقل لا حدود له ووسعك ان تعرفي ما اقصد : لا يا غادة
لم تكن الغيرة من الآخرين .. كنت احس انني اكبر منهم بما لا يقاس ،
ولم اكن اخشى منهم ان يأخذوا مني قلامة ظفرك . لا يا غادة ،
لم يكن الارتعاد والتمثيل والزيف فذلك شيء الوحيد الذي لن
استطيع ابداً اتقانه ولو اتقنته لما كنت الآن في قاع العالم ..
لا يا غادة .. لم يكن الا ذلك الشعور الكئيب الذي لم يكن يغادرني ،
مثل ذبابة ، طنين على صدري ، بأنك لا محالة ستقولين ذات
يوم ما قلته حين الليلة .

ان الشرود يذهلني ، رغم الستارة التي تحول الآن
شراعي وتذكرني بالوف الحواجز التي تجعل من مستقبل - امامي -
مجرد شراع .. واشعر بصفاء لا مثيل له مثل صفاء الرؤية
ورغم ذلك فانا اريد ان اظل معك . لا اريد ان تغيب عني
عيناك اللتان اعطتاني ما عجز كل شيء انتزعته في هذا
العالم من اعطائي . ببساطة لانني احبك . واحبك كثيراً يا

عادة، وسيصير الكثير مني ان افتقدك، وانا اعرف ان
غبار الايام سيترسب على الجرح ولكنني اعرف بنفس المقدار
انه سيكون مثل جروح جسدي : تلتهب كلما هبت عليها
الريح .

انا لا اريد منك شيئاً ، ومنذ تحدثنا عن توزيع الانتصارات
يتبادر الى ذهني ان كل انتصارات العالم انما وزعت فوق جثث
رجال ماتوا في سبيلها .

انا لا اريد منك شيئاً ، ولا اريد بنفس المقدار
ابداً ابداً ان افقدك .

ان المسافة التي ستفرضينها لن تحجبك عني ، لقد
بنينا اشياء كثيرة معاً لا يمكن ، بعد ، ان تبعثرها المسافات
ولا ان تهدمها القطيعة لانها بنيت على اساس من الصدق
لا يستطيعون اليه التزعزع .

ولا اريد ان افقد "الناس" الذين لا يستحقون ان يكونوا
وقود هذا الصدام المروّع مع المقاييس التي نعيشها .

.. ولكن اذا كان هذا ما تريدينه فقولي لي ان
اغيب انا ، ظلي هنا انت فانا الذي يقدر ان احمل
حقيبتي الصغيرة وامضي ..

ولكنني هذه المرة سأمضي وانا اعرف انني احمله ،
وسأظل اعرف كلما هبت الريح على الاشياء العزيزة التي
بنيناها معاً ..

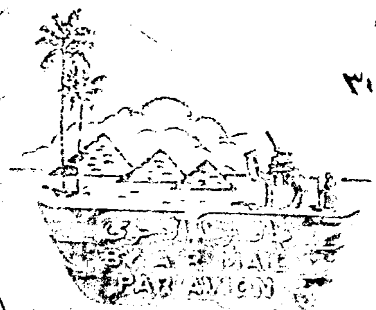
HOTEL SCARABÉE

16 Rue 26 Juillet — Le Caire

Ad. Tel. "Scarabotel - Cairo"

Tel. 73791 — 44298 — 44316

R.C. 103694



الآنسة غادة السمان

عمارة لحة - رقم ٣١

قرب اوتيل كنفنز

الروشة

بيروت

رسالة غير مؤرخة، ولكن سياق الكلام فيها يدل على أنها كتبت في القاهرة أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) وقبل ٢٩/١١/١٩٦٦ بيوم أو اثنين.

عزيزتي غادة..

مرهق إلى أقصى حد: ولكنك أمامي، هذه الصورة الرائعة التي تذكرني بأشياء كثيرة عيناك وشفتاك وملامح التحفز التي تعمل في بدني مثلما تعمل ضربة على عظم الساق، حين يبدأ الألم في التراجع. سعادة الألم التي لا نظير لها. أفتقدك يا جهنم، يا سماء، يا بحر. أفتقدك إلى حد الجنون. إلى حد أضع صورتك أمام عيني وأنا أحبس نفسي هنا كي أراك.

ما زلت أنفض عن بذلتي رذاذ الصوف الأصفر الداكن. وأمس رأيت كرات صغيرة منها على كتفي فتركتها هناك. لها طعم نادر كالبهار.. أنها تبتعث الدموع إلى عيني أيتها الشقية. الدموع وأنا أعرف أنني لا أستحقك: فحين أغلقت الباب وتركتني أمضي عرفت، عرفت كثيراً أية سعادة أفتقد إذ لا أكون معك. لقد تبقت كرات صغيرة من الصوف الأصفر على بذلتي، تتشبث بي مثلما أنا بك، وسافرت بها إلى هنا مثلما يفعل أي عاشق صغير قادم من الريف لأول مرة.

لن أنسى. كلا. فأنا ببساطة أقول لك: لم أعرف أحداً في حياتي مثلك، أبداً أبداً. لم أقترب من أحد كما اقتربت منك أبداً أبداً ولذلك لن أنساك، لا... إنك شيء نادر في حياتي. بدأت معك ويبدو لي أنني سأنتهي معك.

سأكتب لك أطول وأكثر.. لقد أجلوا المؤتمر إلى ٣٠ ولكنهم سيسفروننا غداً، الأحد إلى غزة كي نشترك بمآتم التقسيم. يا للهول.

ويبدو أنه لن يكون بوسعي أن أعود للقاهرة قبل الرابع. وسأكون في بيروت يوم ٦ كانون الأول على أبعد تعديل.. إلا إذا فررت من المؤتمر وأتيتك عدْواً..

حين قرأ أحمد بهاء الدين حديثك لي خطفه(١)، بل أجبرني على التعاقد معه لأكتب له مواضيع مماثلة... قال لي وهو يهز رأسه: أخيراً أيها العفريت وجدت من يُسكت شراستك. سينشر الموضوع في «المصوّر»(٢) التي علمت أنها توزع في كل البلاد العربية أعداداً هائلة وتحوز على ثقة الناس واحترامهم.. ولكنني بالطبع لا أعرف متى..

وزعت كتبك(٣). تحدثت عنك كثيراً. فكرت بك. بك وحدك.. وأنت لا تصدقين.. وأنت (حين أعذب نفسي في المساء) موجودة في الماي فير(٤) مع الناس والهواتف والضحك..

حاولي أن تكتبي لي: فندق سكارابيه شارع ٢٦ يوليو. القاهرة فسيكون أحلى ما يمكن أن يلقاني حين عودتي رسالة منك لأنني أعرف أنك لن تأتين..

آه.. يا عزيزة!

غسان كنفاني

---

(١) حوار صحافي.
(٢) مجلة **المصور** المصرية وكان يرئس تحريرها يومئذ أحمد بهاء الدين.
(٣) نسخ من كتاب **ليل الغرباء** حملها معه إلى القاهرة وكان الكتاب قد صدر قبلها بأشهر.
(٤) مقهى في بيروت - الروشة يجاور بيتي يومئذ كان يحلو لي الجلوس فيه أحياناً مع الأصدقاء.

عزيزتي غادة ..

وهذه الأيام : ولكنها أمامي ، هذه الصورة الرائعة التي تذكرني بأشياء كثيرة عينيك وشفتاك وملامح التحفز التي تحمل في بدنك مثلما تحمل شرية مع عظم انسانه ، حين يبدأ الالم في التراجع . سعادة الالم التي لا نظير لها . افتقدك في صمتي ، في اسهامي ، في بكري . افتقدك الى حد الجنون . الى حد اضع صورتك امام عيني وانا احبس نفسي هناك كي اراك .

مازلت انفض عن بذلتي رذاذ الصوف الاصفر الداكن . وامس رأيت كرات صغيرة منه في كتفي فتركتها هناك . لها طعم نادر كالدمع .. انها تبعث الدموع الى عيني ابتسامة الشقية . الدموع وانا اعرف انني لا استحقك ، فحين اغلقت الباب وتركتني امضي عرفت ، عرفت كثيراً ايه سعادة افتقدها اذ لا اكون معك . لقد تبقت كرات صغيرة من الصوف الاصفر في بذلتي ، تتشبث بي مثلما انا بك ، وسافرت بها الى هنا مثلما يفعل اي عاشق صغير قادم من الريف بوردة .

لن انسى . كلا . ؟انا ببساطة اتعود ، لم اعرف احداً في حياتي مثلك ، ابداً ابداً . لم اقترب من احد كما اقتربت منك ابداً ابداً ولذلك لن انساك ، لا ... انك شيء نادر في حياتي . بدأت معك ويبدو لي انني سانتهي معك .

سأكتب لك الطول رأساً .. يقدمونا المؤتمر الى بعد ولكنهم سيطيرونا غداً ، الاحد الى غزة كي نشترك بها في التقسيم رأساً للطول . ويبدو انه تقرر كلها وسعي ان اعود للقاهرة قبل الاربع . وساكون في بيروت يوم ٦ كانون الاول مع احد نقديك .. الا اذا شردت من المؤتمر واتيتك عدواً ..

حين رأى صديقي ولده حديثك لي خطفه ، لا اخبرني عن القاهرة معه لاكتب له بمواضيع مانحة ... ثانك ويعود وزني رأسه : اقرأ انه الحقيقة وجدت من يكتب شرائطك . سينشر الموضوع في "المصور" التي علمت انها توزع في كل البلاد العربية اعداداً هائلة وتوزع مع شغف الناس واهتمامهم .. ولكنني بالطبع لا اعرف متى ..

وزعت كتبي . تحدثت عنك كثيراً . فكرت بك . بك وحدك .. وانت لا تصدقين .. وانت (حين اعذب نفسي في بيروت) موفورة في الماء في مع الناس والهواتف والقصص ..

حاولي ان تكتبي لي : فندق [illegible] شارع ٢٦ يوليو . القاهرة فسيكون اجمل ما يمكن ان يتاح حين عودتي رسالة منك لانني اعرف [illegible] انك لن تأتين ..

آه .. يا عزيزة !

كازينو الأندلس - غزة **ANDALUS CASINO - GAZA**	**فندق الأندلس - غزة** **EL - ANDALUS HOTEL - GAZA**
فندق قصر البحر - غزة **SEA PALACE HOTEL - GAZA**	**كازينو هويدي - غزة** **HAWAIDI CASINO - GAZA**
Tel 653 ت ٦٠٣	**Tel 352 ت: ٣٥٢**

غزة في ٢٩/١١/١٩٦٦ Gaza

غادة

كل هذه العناوين المسجلة فوق، على ضخامتها، ليست إلا أربع طاولات على شاطىء البحر الحزين، وأنا، وأنت، في هذه القارورة الباردة من العزلة والضجر. إنه الصباح، وليلة أمس لم أنم فقد كان الصداع يتسلق الوسادة كجيوش مهزومة من النمل، وعلى مائدة الفطور تساءلت: هل صحيح أنهم كلهم تافهون أم أن غيابك فقط هو الذي يجعلهم يبدون هكذا؟ ثم جئنا جميعاً إلى هنا: أسماء كبيرة وصغيرة، ولكنني تركت مقعدي بينهم وجئت أكتب في ناحية، ومن مكاني أستطيع أن أرى مقعدي الفارغ في مكانه المناسب، موجوداً بينهم أكثر مما كنت أنا.

إنني معروف هنا، وأكاد أقول «محبوب»، أكثر مما كنت أتوقع، أكثر بكثير. وهذا شيء، في العادة، يذلني، لأنني أعرف بأنه لن يتاح لي الوقت لأكون عند حسن ظن الناس، وأنني في كل الحالات سأعجز في أن أكون مثلما يتوقعون مني. طوال النهار والليل أستقبلُ الناس، وفي

الدكاكين يكاد الباعة يعطونني ما أريد مجاناً وفي كل مكان أذهب إليه أستقبل بحرارة تزيد شعوري ببرودة أطـرافي ورأسي وقصر رحلتي إلى هؤلاء الناس وإلى نفسي. إنني أشعر أكثر من أي وقت مضى أن كل قيمة كلماتي كانت في أنها تعويض صفيق وتافه لغياب السلاح وأنها تنحدر الآن أمام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه، وذلك كله يشعرني بغربة تشبه الموت وبسعادة المحتضر بعد طول إيمان وعذاب، ولكن أيضاً بذل من طراز صاعق.

ولكنني متأكد من شيء واحد على الأقل، هو قيمتك عندي.. أنا لم أفقد صوابي بك بعد، ولذلك فـأنا الـذي أعرف كم أنت أذكى وأنبـل وأجمل. لقد كنتِ في بدني طوال الوقت، في شفتي، في عيني وفي رأسي. كنتِ عذابي وشوقي والشيء الرائع الـذي يتذكـره الإنسان كي يعيش ويعود.. إن لي قدرة لم أعرف مثلها في حياتي على تصورك ورؤيتك.. وحين أرى منظراً أو أسمع كلمة وأعلق عليها بيني وبين نفسي أسمع جوابك في أذني، كأنك واقفة إلى جواري ويدك في يدي. أحياناً أسمعك تضحكين، وأحياناً أسمعك ترفضين رأيي وأحياناً تسبقينني إلى التعليق، وأنظر إلى عيون الواقفين أمامي لأرى إن كانوا قد لمحوك معي، أتعاون معك على مواجهة كل شيء وأضع معك نصل الصدق الجارح على رقابهم. إنني أحبك أيتها الشقية كما لم أعرف الحب في حياتي، ولست أذكر في حياتي سعادة توازي تلك التي غسلتني من غبار وصدأ ثلاثين سنة ليلة تركت بيروت إلى هنا.

أرجوك.. دعيني معك. دعيني أراك. إنك تعنين بالنسبة لي أكثر بكثير مما أعني لك وأنا أعرف ولكن ما العمل؟ إنني أعرف أن العـالم ضدنا معاً ولكنني أعرف أنه ضدنا بصورة متساوية، فلماذا لا نقف معاً في وجهه؟ كفّي عن تعذيبي فلا أنا ولا أنت نستحق أن نسحق على هذه الصورة. أما أنا فقد أذلني الهروب بما فيه الكفاية ولست أريد ولا أقبل الهروب بعد. سأظل، ولو وُضع أطلس الكون على كتفيّ، وراءك ومعك.

ولن يستطيع شيء في العالم أن يجعلني أفقدك فقد فقدت قبلك، وسأفقد بعدك، كل شيء.

«إنني لا أستطيع أن أكرهك ولذلك فأنا أطلب حبك»[1].. أعطيك العالم إن أعطيتني منه قبولك بي.. فأنا، أيتها الشقية، أعرف أنني أحبك وأعرف أنني إذا فقدتك فقدت أثمن ما لديّ، وإلى الأبد..

سأكتب لك وأنا أعرف أنني قد أصل قبل رسالتي القادمة، فسأغادر القاهرة يوم ٥ كانون وتأكدي: لا شيء يشوقني غيرك.

غسان كنفاني

---

(١) هذه العبارة هي استشهاد لغسان من إحدى رسائله الوجدانية لي المنشورة في زاوية «أوراق خاصة» في جريدة **المحرر**، وغير المنشورة بعد في «الأعمال الكاملة لغسان كنفاني». وكان غسان يحمل لي مسودات رسائله إليّ التي ينشرها وذلك بعد أن تقوم المطبعة بصفها، وقد احتفظت بتذكارات منها بخطه، لكنني لم أنشرها في هذا الكتاب، إذ من المفروض أن تصدر في مجلد خاص بها في «الأعمال الكاملة لغسان كنفاني» ما دام قد اختار أن ينشرها بنفسه في الصحف خلال حياته.

فندق الاندلس - غزة
EL-ANDALUS HOTEL - GAZA
كازينو هويدي - غزة
HAWAIDI CASINO - GAZA
Tel · 352 ت : ٣٥٢

كازينـــو الاندلس - غزة
ANDALUS CASINO - GAZA
فندق قصر البحر - غزة
SEA PALACE HOTEL - GAZA
Tel 653 ت ٦٥٣

Gaza غزة في ١٩٦٦/١١/٢٩

غادة

كل هذه العظمة الحزينة ، مع فخامتك ، ليست الا اربع طاولات على شاطئ البحر الحزين ، وانا ، وانت ، في هذه القارورة الباردة من العزلة والضجر ، انه الصباح ، وليلة امس لم انم . فقد كان الصباح يتكوم فوق الوسادة كجيوش مهزومة من الليل ، وعند دائرة الضوء تساءلت : هل صحيح ان كلهم كانوا اصدقاء لي ام ان غيابك فقط هو الذي يجعلهم يبدون هكذا ؟ ثم جئنا جميعاً الى هنا : بعضاً كبيرة وصغيرة ، ولكنني تركت مقعدك بينهم وجئت اكتب في زاوية ، ومن مكاني استطيع ان ارى مقعدك الفارغ في مكانه المناسب بينهم ، موجوداً بينهم اكثر مما كنت انا

انني معروف هنا ، وكما اقول ، محبوب " اكثر مما كنت اتوقع ، اكثر بكثير ، وهذا شيء في العادة يذلني ، لانني اعرف انه لن يتاح لي الوقت لاكون عند حسن ظن الناس ، وانني في كل الحالات لن اجرؤ ان اكون مثلما يتوقعون مني . طوال النهار والليل استقبل الناس ، وبين الكأسين يكاد الباعة يعطونني ما اريد مجاناً " وفي كل مكان اذهب اليه استقبل بحرارة تزيد شعوري ببرودة اطرافي ويأسي وتقصيري حتى الهول بالنسبة الى نفسي . انني اشعر اكثر من اي وقت مضى ان كل قيمة كلماتي كانت في انها تعويض صغير وتافه لغياب السلاح ، وانها تتدحرج الآن امام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء احترمه ، ذلك كله يشعرني بغربة تشبه الموت وسعادة المحتضر بعد طول ايمان وعذاب ، ولكنني ايضاً بذلك من طراز جماعة .

ولكنني متأكد من شيء واحد على الاقل ، هو قيمتك عندي .. انا لم افقد صوابي بعد بعد ، ولذلك فانا الذي اعرف كم انت رائعة وانبل واجمل . لقد كنت في بدني طوال الوقت ، في شفتي ، في عيني وفي رأسي ، كنت عذابي وشوقي والشيء الرائع الذي يتذكره الانسان كي يعيش ويعود . ان

في قدرة لم أعرف مثلها في حياتي على حضورك ورؤيتك .. وحين أرى منظراً أو أسمع كلمة وأعلّق عليها بيني وبين نفسي أسمع جوابك في أذني ، كأنك واقفة إلى جواري ويدك في يدي . أحياناً أسمعك تضحكين ، وأحياناً أسمعك ترفضين رأيي وأحياناً تسبقينني إلى التعليق ، وأنظر إلى عيون الواقفين أمامي لأرى إن كانوا قد لمحوك معي ، أتحاور معك عن مواجهة كل شيء وأضحك معك على نصل الصدق الجارح على رقابهم . إنني أحبك أيتها الشقية كما لم أعرف الحب في حياتي ، ولست أذكر في حياتي سعادة توازي تلك التي غمرتني من غبار وحدها الآنية سنة ليلة تركتُ بيروت إلى [illegible]

أرجوك .. دعيني معك . دعيني أراك . إنك تعنين بالنسبة لي أكثر بكثير مما أعنيه لك . وأنا أعرف ولكن ما الحل ؟ إنني أعرف أن العالم ضدنا معاً ، ولكنني أعرف أنه ضدنا بصورة متساوية ، فلماذا لا نقف معاً في وجهه ؟ كفي عن تعذيبي فلا أنا ولا أنت نستحق أن نسحق على هذه الصورة . أما أنا فقد أذلني الهروب بما فيه الكفاية ولست أريد ولا أقبل الهروب بعد . سأظل ، ولو وضع الناس الكون على كتفي ، وراءك ومعك . ولن يستطيع شيء في العالم أن يجعلني أفقدك فقد فقدت قبلك ، وسأفقد بعدك ، كل شيء . «إنني لا أستطيع أن أكرهك ولذلك فأنا أطلب حبك» .. أعطيك العالم إن أعطيتني منه قبولك لي .. فأنا ، أيتها الشقية ، أعرف أنني أحبك وأعرف أنني إذا فقدتك فقدت أثمن ما لدي ، وإلى الأبد ..

سأكتب لك وأنا أعرف أنني قد أصل قبل رسالتي القادمة ، منذ غادرت القاهرة يوم ٥ كانون .

وتأكدي : لا شيء يشوقني غيرك .

١٩٦٧/١/٢٠

عزيزتي غادة

صباح الخير..

ماذا تريدين أن أقول لك؟ الآن وصلت إلى المكتب، الساعة الثانية ظهراً، لم أنم أبداً حتى مثل هذه الساعة إلا أمس ودخلت مثلما أدخل كل صباح: استرق النظر إلى أكوام الرسائل والجرائد والطرود على الطاولة كأنني لا أريد أن تلحظ الأشياء لهفتي وخيبتي. اليوم فقط كنت متيقناً أنني لن أجد رسالة منك، طوال الأيام الـ ١٧ الماضية كنت أنقب في كوم البريد مرة في الصباح ومرة في المساء. اليوم فقط نفضت يدي من الأمر كله، ولكن الأقدار تعرف كيف تواصل مزاحها. لقد كانت رسالتك فوق الكوم كله، وقالت لي: صباح الخير! أقول لك: دمعتُ.

منذ سافرتِ سافرت آني، وإلى الآن ما تزال في دمشق وأنا وحدي سعيد أحياناً، غريب أحياناً وأكتب دائماً كل شيء إلا ما له قيمة.. حين كنتِ على المطار كنت أعرف أن شيئاً رهيباً سيحدث بعد ساعات: غيابك وتركي للمحرر[١]، ولكنني لم أقل لك. كنتِ سعيدة ومستثارة بصورة لا مثيل لها وحين تركتك ذهبت إلى البيت وقلت للمحرر أن كل شيء قد انتهى.

إنني أقول لك كل شيء لأنني أفتقدك. لأنني أكثر من ذلك «تعبتُ من الوقوف»[٢] بدونك.. ورغم ذلك فقد كان يخيل إلي ذات يوم إنك

---

(١) جريدة **المحرر** البيروتية، حيث كان غسان يعمل.

(٢) استشهاد من زاويته «أوراق خاصة». راجع هامش ص ٤١ من هذا الكتاب.

ستكونين بعيدة حقاً حين تسافرين.

ولقد آلمتني رسالتك. ضننتِ عليّ بكلمة حارة واحدة واستطعت أن تظلي أسبوعاً أو أكثر دون أن أخطر على بالك. يا للخيبة! ورغم ذلك فها أنا أكتب لك: مع عاطف(١) شربنا نخبك تلك الليلة في الماي فير(٢) وتحدثنا عنك وأكلنا التسقية(٣) بصمت فيما كان صاحب المطعم ينظر إلينا نظرته إلى شخصين أضاعا شيئاً.

متى سترجعين؟ متى ستكتبين لي حقاً؟ متى ستشعرين أنني أستحقك؟ إنني انتظرت، وأنتظر، وأظل أقول لك: خذيني تحت عينيك..

غسان

---

(١) صديق حميم من أصدقائي وغسان.
(٢) مقهى في الروشة.
(٣) فتة الحمص وكنا نذهب آخر الليل للعشاء في مطعم شعبي يعدها في (الطريق الجديدة) قرب المقاصد، حتى صار صاحب المطعم يتوقع حضورنا كل ليلة مع الأصدقاء، ويعاتبنا إذا غبنا!.

عزيزتي غادة

صباح الخير ..

ماذا تريدين ان اقول لك ؟ منذ وصلت الى المكتب ، الساعة الثانية ظهراً ، لم افعل ابداً

شيئاً [illegible] الساعة الان [illegible] ورغبت مثلما ارغب كل صباح : استرقت النظر الى الكوام الرسائل والجرائد

والورق على الطاولة كأني لا اريد ان [illegible] الاشياء التي [illegible] ونسيتني . اليوم فقط كنت [illegible]

الى اخذ رسالة [illegible] ، طوال الايام الـ ١٧ الماضية كنت انقب في كوم البريد مرة في الصباح ومرة في

المساء . اليوم فقط [illegible] يدي من الامر [illegible] ، وكان الاقتدار [illegible] كيف [illegible] [illegible] .

كانت رسالتك فوق الكوم [illegible] ، وقالت لي : صباح الخير ! اقول لك : وصلت .

منذ سافرت [illegible] ، وانا الان ما ازال [illegible] وانا [illegible] [illegible]

غريب احياناً [illegible] كل [illegible] الا [illegible] .. [illegible] في القطار [illegible]

[illegible] بعد ساعات [illegible] وتركت [illegible] ، وكأنني لم اقل [illegible] . كنت [illegible]

وسط [illegible] لا [illegible] و [illegible] الى [illegible] [illegible] ان [illegible] ؟

[illegible] .

اني اقول لك [illegible] الذي [illegible] هذه " [illegible] " [illegible] نفتقد كله
في اي ذات يوم انه [illegible] تماما [illegible] حاضرين .

و [illegible] [illegible] كلها عبارة واحدة [illegible] اسبوعا او اكثر
دون ان انظر [illegible] . يا [illegible] انا اكتب لك : [illegible]
[illegible] وتعذبنا [illegible] كله [illegible] ينظر الينا نظرته الى
شخصين اضاعا [illegible] .

متى ستحبين ؟ متى ستكتبين لي حقا ؟ متى ستشعرين اني استحقك ؟ اني
انتظرت ، وانتظر ، واظل اقول لك : خذيني تحت عينيك ..

١٩٦٧/١/٢٠

[illegible]

١٩٦٧/١/٢٤

غادة.. يا حياتي!

كيف تقولين لي: «لا ألومك، لك الحق... في الدفاع عن توقيتك لرحلة صيد انتهت؟» كيف تفكرين لحظة واحدة بأن هذا التعيس الذي ينتظرك كما ينتظر وطناً ضائعاً يفعل ذلك؟ كيف تعتقدين أن ذلك الرجل الذي سلخت الشوارع قدميه، كالمجنون الطريد، ينسى أو يوقّت أو يدافع عن نفسه أو يهاجم؟ ولكنني أغفر لك، مثلما فعلت وأفعل وسأظل أفعل. أغفر لك لأنك عندي أكثر من أنا وأكثر من أي شيء آخر،لأنني ببساطة «أريدك وأحبك ولا أستطيع تعويضك»[1]، لأنني أبكي كطفل حين تقولين ذلك، وأحس بدموعي تمطر في أحشائي، وأعرف أنني أخيراً مطوق بك، بالدفء والشوق وأنني بدونك لا أستحق نفسي!.

أنت، بعد، لا تريدين أخذي، تخافين مني أو من نفسك أو من الناس أو من المستقبل لست أدري ولا يعنيني. ما يعنيني أنك لا تريدين أخذي، وأن أصابعك قريبة مني، تحوطني من كل جانب، كأصابع طفل صغير حول نحلة ملونة: تريدها وتخشاها ولا تطلقها ولا تمسكها ولكنها تنبض معها.. أعرف أعرف حتى الجنون قيمتك عندي، أعرفها أكثر وأنت غائبة وأمس رأيت عمارات الروشة، صدقيني، عارية مثل أشجار سلخها الصقيع في البراري، تطن عروقها الرفيعة في وجه السماء كأنها السياط.. بدونك لا شيء. وهذا يحدث معي لأول مرة في عمري التعيس كله.

لماذا أنت معي هكذا؟ إنني أفكر بك ليل نهار، أحياناً أقول انني سأخلصك مني ويكون قراري مثل قرار الذي يريد أن يقذف نفسه في الهواء، أحياناً أقول انني سأتجلد، انني، كما توحين لي أحياناً، أريد أن

(١) استشهاد من زاويته «أوراق خاصة» في جريدة **المحرر**. راجع هامش ص ٤١ من هذا الكتاب.

أدافع وأهاجم وأغير أسلوبي، أحياناً أراك: أدخل إلى بيتك فوق حطام الباب وأضمّك إلى الأبـد بين ذراعي حتى تتكـونا من جـديد، عظمـاً ولحماً ودماً، بحجم خاصرتك.. ولكنني في أعماقي أعـرف أن هذا لن يحـدث وأنني حين أراك سأتكوم أمامـك مثل قط أليف يـرتعش من الخوف.. فلماذا أنت معي هكذا؟ أنت تعرفين إنني أتعذب وإنني لا أعرف ماذا أريد. تعرفين إنني أغار، وأحترق وأشتهي وأتعذب. تعرفين إنني حائر وانني غارق في ألف شوكة برية.. تعرفين.. ورغم ذلك فأنت، فوق ذلك كله، تحولينني أحياناً إلى مجرد تافه آخر، تصغرين ذلك النبض القاتل الذي يهزني كالقصبة، معك وبدونك.

أحياناً تأخذينني على محمل أقل ذكاء مما ينبغي. مَنْ الذي رأيتِه، أيتها الغالية، في الثامنة والنصف من آخر ليلة كنت فيها في بيروت؟ إنه شيء تافه وصغير ولكن يبدو أنني أحياناً أتوقف لأقتلع من راحة يدي شوكة في حجم نصف دبوس.. ألا تفهمين أن هذا الذي ينبض داخل قميصي هو رجل شرقي خارج من علبة الظلام؟ حتماً تعرفين. أنت هائلة في اكتشاف مقتلي لذلك تتهربين مني أحياناً، لذلك «لا تقولين» ولذلك بالذات تقولين!

لنجعل من نفسينا معاً شيئاً أكثر بساطة ويسراً، لنضع ذراعينا معاً ونصنع منهما قوساً بسيطاً فوق التعقيدات التي نعيشها وتستنزفنـا.. لنحاول ذلك على الأقل. أنت عندي أروع من غضبك وحزنك وقطيعتك. أنت عندي شيء يستعصي على النسيـان، أنت نبيّة هـذا الظلام الـذي أغرقتني أغواره الباردة الموحشة وأنا لا أحبك فقط ولكنني أؤمن بك مثلما كان الفارس الجاهلي يؤمن بكأس النهاية يشربه وهو ينزف حياته، بل لأضعه لك كما يلي: أؤمن بك كما يؤمن الأصيـل بالـوطن والتقي بالله والصوفي بالغيب. لا. كما يؤمن الرجل بالمرأة!

كتبت لك منذ أربعة أيام أو أكثر رسالة، لم أكن أعرف عنوانك قبل ذلك، وكتبتها يوم وصلت رسالتك إليّ، بعد خمسة أيام من وصول رسالتك

لعاطف[١].. وأرسلت لك فيها قصاصات (يقولون هذه الأيام في بيروت. وربما أماكن أخرى، ان علاقتنا هي علاقة من طرف واحد، وانني ساقط في الخيبة. قيل في الهورس شو[٢] إنني سأتعب ذات يوم من لعق حذائك البعيد. يقال أنك لا تكترثين بـي وانك حاولت أن تتخلصي مني ولكنني كنت ملحاحاً كالعلق. يشفقون علي أمامي ويسخرون مني ورائي. ويقرأون لي كما يقرأون نماذج للشاعر المجنون[٣]... ولكن ذلك كله يظل تحت ما أشعره حقاً، فأنا أحبك بهذه البساطة والمواصلة التي لا يمكن فهمها في شارع الحمراء، ولا على شفاه التافهين).

أرى عاطف أحياناً: يمر على مكتبي ونتحدث عنك ولكنه يشعر بالبرد فيذهب إلى بيته، أما أنا فالبيت أكثر برداً من أن أذهب إليه.. يسألني عن شخص مسافر إلى لندن، أعتقد أنك طلبت منه أن يرسل شيئاً لك.. إنه في صحة جيدة ويضحك دائماً وموجود في كل مكان، كما تعرفينه، ومنذ أسبوع تقريباً، ذهبنا وشربنا معاً كأساً صامتاً حوالي ساعتين. وأمس ليلاً كان هنا وقال لي انه سيكتب لك، فقلت له: أما أنا فقد فعلت. ضحك وقال: ١٢ صفحة؟

منذ ذهبتِ سافرت أني لدمشق، وحتى الآن لم تعد فالطريق مغلق بالثلوج والجو بارد ولكن سيارتي تتقد دائماً وعجلاتها لا تكف عن سلخ الإسفلت، دونما هدف. الراديو أخرس ما يزال، والشوفاج فوضى، والزمور لا يصرخ إلا إذا انعطفت لليسار والسائقون الآخرون مستعجلون كما كنا نراهم دائماً لا أفتح لهم الطريق إلا مع شتيمة وليلة أمس غيّرت عجلاً تحت المطر قرب المكان الذي غيرت فيه ذات يوم عجلاً صعباً معك، وحين انتهيت خيل إلي أن وجهي كان مغسولاً بالدموع لا بالمطر: فقد فتحت باب السيارة وتوقعت أن يسقط رأسك المتكىء على الباب، كما حدث ذلك

---

(١) عاطف السمرا.

(٢) أحد مقاهي الأدباء في الستينات في بيروت.

(٣) كان غسان يكتب نصوصاً وجدانية في زاويته الخاصة بجريدة المحرر ولعلها لم تجمع بعد في كتاب.

اليوم.

تعالي، يا أجمل وأذكى وأروع قطة في هذا العالم كله. ألم تشتاقي لماكس والقرد المدهوش والحطاب الغاضب والعجّانة[١]؟ ألم تشتاقي لغسان؟

كنت آسفاً جداً حين كتبت لك عن تلك الألمانية[٢] التي نسيت اسمها الآن. خشيت أن تتصوري أنني أمتع نفسي بطريقة أو بأخرى. لا. لقد كانت كأساً باردة لكحول عمياء أمام طاولة رجل طريد. إن الحرية لا يمكن أن تكون شيئاً يأتي من الخارج، وأنا الآن طليق إلى أبعد حد، ولكنني حين التفت أسمع أصوات السلاسل الغليظة تخش وترن في صدري..

أريد أن أكتب لك، أن أكتب لك كل لحظة، ليل نهار: في الشمس التي بدأت تشرق بحياء، تحت سياط الصقيع، في الصباح البارد والمساء والعتمة، في ضياعي وجنوني وموتي..(اطمئني: إن صحتي جيدة، وآخر ثلاثة أيام كنت مريضاً جداً ولكنني لم أنم، واليوم أتحسن) لم أكتب شيئاً في روايتي، أعمل في المحرر كما كان يعمل العبيد العرايا في التجديف، لديّ فكرة لمسرحية سترينها في الأوراق الخاصة[٣] لا أعرف متى سأكتبها.. أعرف فقط أنني أنتظرك.

أنتظرك. أنتظرك. أنتظرك. وأفتقدك أكثر مما في توق رجل واحد أن يفتقد امرأة واحدة، وأحبك، ولن أترك أبداً سمائي التي تحدثت عنها «تفجر الثلج»، إنني فخور بآثار خطواتنا ولا أريد لشيء، حتى السماء، أن تكنسها.

غسان كنفاني

بيروت (الآن وغداً وإلى الأبد)
ولكن صادف أن كتب في ١٩٦٧/١/٢٤

---

(١) تماثيل في بيتي كان يطلق غسان عليها الأسماء ويحاورها وعلى رأسها بومة أسماها ماكس!.
(٢) نسي أن يكتب لي عنها ونسي أنه نسي!
(٣) اسم زاوية في جريدة **المحرر** يومئذ.

غادة .. يا حياتي !

كيف تقولين لي : "لا الوصل ، ولا الجفاء ... في الدفاع عن توقيت رحلة صيد انتهت ؟" كيف تكسرين لحظة واحدة بأن هذا القيس الذي ينتظرك كما ينتظر وطناً ضائعاً "يفعل ذلك" ؟ كيف تعتقدين ان ذلك الرجل الذي سحقت الشوارع [redacted] قدميه ، كالمجنون الطريد ، ينسى او يتوقف او يدافع عن نفسه او يحتج ؟ ولكنني اعذرك ، مثلما عذرت وافعل وسأظل افعل . اعذرك لانك عندي اكثر من انا واكثر من اي شيء آخر ، ولانني ببساطة اريدك واحبك ولا استطيع تعويضك " ، ولانني ابكي كطفل حين تقولين ذلك ، واحس بدموعي تقطر في احشائي ، واعرف انني اخيراً مطوق بك ، بالدفء والشوق وانني بدونك لا استحق نفسي !

انت ، بعد ، لاتريدين اخذي ، تخافين مني او من نفسك او من الناس او من المستقبل لست ادري ولا يعنيني . ما يعنيني انك لاتريدين اخذي ، وانك اصابعك قريبة مني تحوطني من كل جانب ، كاصابع طفل صغير حول كتلة ملونة : تريدها وتخشاها ولا تطلقها ولا تمسكها ولكنها تنبض معها .. اعرف اعرف حتى الجنون قيمتك عندي ، واعرف انك واثقة غالبة واحس رأيت حمامات الروشة ، صدقيني ، عارية مثل اشجار الحرج الصقيع في البارد ، تطير عروقها الرفيعة في وجه السماء كالشرايين .. بدونك لاشيء . وهذا يحدث دائماً بدونك مرة في حرب التيس كله .

لماذا انت معي هكذا ؟ انني اعذر جبالك نفسي ، احياناً اقول انني ساخلصك مني وكون قادراً مثل غزال الذي يريد ان يقذف نفسه في الهواء ، احياناً اقول انني ساكبد ، انتي ، كما توهمين لي احياناً ، اريد ان ادافع وانفاجم واغير اسلوبي ، احياناً اراك : ادخل الى بيتك فوق حطام الباب واضمك الى الأبد بين ذراعي حتى تتكونا من جديد ، عظماً ولحماً ودماً ، بحجم خاصرتك .. ولكنني في اعماقي اعرف ان هذا لن يحدث واني حين اراك ساكون امامك مثل قط البيت يرتعش من الخوف --

فماذا انت معي هكذا ؟ انت تعرفين انني اتعذب وانني لا اعرف ماذا اريد . تعرفين انني اغار ، واحترق واشتهي واتعذب . تعرفين انني حائر واني عارية في انفي شوكة برية .. تعرفين .. ورغم ذلك فانت ، فوق ذلك كله ، تحولينني احياناً الى مجرد تافه آخر ، تصغرين ذلك النبض القاتل الذي يحزني كالقصبة ، وحل وبدونك .

احياناً تأخذينني مع كل اقل ذكاء مما ينبغي ، من الذي رأيتيه ، ايتها الغالية ، في الثامنة والنصف من آخر ليلة كنت فيها في بيروت ؟ انه شيء تافه وصغير ولكنه يبدو انني احياناً اتوقف لا استطيع ممارسة يدي مشكلة في حجم نصف دبوس .. الا تفهمين ان هذا الذي ينبض داخل قميصي هو رجل شرقي خارج من عليه الظلام ؟ حتماً تعرفين . انت هائلة في اكتشاف حقيقتي لذلك تتهربين مني احياناً ، لذلك لا تقولين » ولذلك بالذات تقولين !

تعجل من نفسينا معاً شيئاً اكثر بساطة ويسراً ، لنضع ذراعينا معاً ونصنع منها قوساً بسيطاً فوق التعقيدات التي تعيشها وتستنزفنا .. نحاول ذلك على الأقل ،

انت عندي اروع من غضبك وحزنك وقطيعتك . انت عندي شيء يستعصي على النسيان ، انت نبتة هذا الظلام الذي اغرقتني انواره الباردة الموحشة وانا لا احبك فقط ولكنني اومن بك مثلما كان الفارس النبيل يؤمن بكأس النبيذ يشربه وهو ينزف حياته ، بل لا ، لا كالسيف : اومن بك كما يؤمن الاصيل بالوطن والتقي بالله والصوفي بالغيب . لا . كما يؤمن الرجل [redacted] بامرأة !

كتبت لك منذ اربعة ايام او اكثر رسالة ، لم اكن اعرف عنوانك قبل ذلك ، وكتبت يوم وصلت رسالتك لي ، بعد خمسة ايام من وصول رسالتي لك .. وابتسمت من فرط ~~[illegible]~~ مصطلحات (يقولون هذه الايام) في بيروت ، وربما انك [illegible] ان [illegible] علاقة [illegible] ، واني سقطت في الخيبة . [illegible] الفرنسي [illegible] اني ساكتب ذات يوم [illegible] عذابه الجديد . يقال انك لا تكترثين بي وانك حاولت ان تتخلصي مني ولكنني كنت [illegible] كالعادة ، سيتفقون لي امامي ويتحدثون عني ورائي ، ويقرأونه لي كما يقرأون [illegible] شاعرا مجنون ... ولكن ذلك كله ظل تحت ما اسميه [illegible] ، فانا احب هذه البساطة والمواجهة التي لا تمكن فيها [illegible] ، وهي [illegible] شفاه [illegible]) .

ارى عاطف احيانا : [illegible] وتحدث عنك ولانه يشعر بالبرد فيذهب الى بيته ، اما انا فالبيت اكثر بردا [illegible] .. ساحكي عن شخص مسافر الى لندن ، اعتقد انك طلبت منه ان يرسل شيئا لك .. انه [illegible] جيدة [illegible] وموعود [illegible] ، كما تعرفينه ، ومنذ اسبوع تقريبا ذهبنا وشربنا [illegible] كأسا [illegible] ساعتين . واسمعني [illegible] هنا وقال لي انه سيكتب لك ، فقلت له : اما انا فقد [illegible] . [illegible] وقال : ١٢ صفحة ؟

منذ ذهبت سافرت الى دمشق ، ومنذ الآن لم تعد فالطريق مغلق بالثلوج والجو بارد ولكن سيارتي تتقد دائما [illegible] لا تكف عن [illegible] ، [illegible] . الراديو [illegible] ، والسوق [illegible] ، [illegible] اذا [illegible] والسائقون الآخرون سيتعجبون كما كنا نراهم دائما لا [illegible] الطريق [illegible] قرب المكان الذي [illegible] ذات يوم [illegible] ، [illegible] كان [illegible] بالدموع لا بالمطر : فقد [illegible] باب السيارة [illegible] الباب ، كما حدث ذلك اليوم .

وقالي ، يا [illegible] الم تشتاقي [illegible] والقرد [illegible] والقطط الناعسة والحانة ؟ الم تشتاقي [illegible] ؟

كنت آسفا جدا حين كتبت لك [illegible] التي [illegible] . خشيت ان تتصوري اني اسمح لنفسي بطريقة او بأخرى . لا . [illegible] كأسا باردة [illegible] امام طاولة [illegible] . ان [illegible] ان تكون [illegible] ، وانا الآن [illegible] الى احد [illegible] اسمع اصوات [illegible] وترن في صدري ..

اريد ان اكتب لك ، ان اكتب لك كل لحظة ، [illegible] التي بدأت [illegible] [illegible] بارد والسائق والعتمة ، [illegible] وصوتي .. (الحمد لله : [illegible] جيدة ، وآخر ثلاثة ايام كنت [illegible] ولكنني لم [illegible] ، واليوم [illegible]) لم اكتب شيئا [illegible] ، [illegible] كانه [illegible] الجديد [illegible] التجديف ، لدي فكرة لمسرحية [illegible] متى ساكتبها .. اعرف فقط اني انتظرك .

انتظرك . انتظرك . انتظرك . واعتقد انك [illegible] واحد ان يفتقد [illegible] ، ولعله [illegible] اني [illegible] خطواتنا ولا اريد شيئا [illegible] ان ننسى .

[illegible]

بيروت ([illegible])
[illegible] ١٩٦٧

بيروت ١٩٦٧/١/٣١

عزيزتي غادة..

وصلتني رسالتاك، فيهما قصاصات من الأوراق الخاصة[١]. بحركة صغيرة، شحطة واحدة فوق نهايات الحروف أعدتِ إلى عالمي المعنى والتوهج وجلدني الشوق لك وأسرني ذكاؤك الذي أفتقده بمقدار ما أفتقد كفيك وكتفيك..

أيتها الشقية الحلوة الرائعة! ماذا تفعلين بعيداً عني؟ أقول لك همساً ما قلته اليوم لك على صفحات الجريدة[٢]: «سأترك شعري مبتلاً حتى أجففه على شفتيك!» أنني أذوب بالانتظار كقنديل الملح. تعالي!

أحس نحوك هذه الأيام ـ أعترف ـ بشهوة لا مثيل لها. إنني أتقد مثل كهف مغلق من الكبريت وأمام عيني تتساقط النساء كأن أعناقهن بترت بحاجبيك. كأنك جعلتِ منهن رزمة من السقط محزومة بجدولتك الغاضبة الطفلة.. لا. ليس ثمة إلا أنت. «إلى أبدي وأبدك وأبدهم جميعاً»... وسأظل أضبط خطواتي ورائك حتى لو كنتِ هواءً.. أتسمعين أيتها الشقية الرائعة؟ حتى لو كنتِ هواءً! ولكنني أريدك أكثر من الهواء. أريدك أرضاً وعَلَماً وليلاً... أريدك أكثر من ذلك. وأنتِ؟

ليس لدنيا أخبار كثيرة هنا. آني عادت فجأة. أرى عاطف[٣] وكمال[٤]

---

(١) كان يكتب رسائل وجدانية في زاويته (أوراق خاصة) ويرسلها إلي في لندن (راجع هامش الصفحة ٤١) فكتبت له مرة رسالة على هامش رسالته.

(٢) استشهاد من زاويته «أوراق خاصة» في جريدة **المحرر**.

(٣) عاطف السمرا. (٤) كمال طعمة.

غالباً وأمس سهرتُ مع ارتين[1] ومع فواجعه و«بوزاته».. عـاطف جاء امس ودخل إلى المكتب غاضباً وتشاجر مع كمال لأنه لم يره منذ فترة ثم سألني: أين كُنت يوم السبت؟ غادة أرسلت شخصاً وفتشتُ عليك في المكتب والبيت طوال الليل والنهار! يا عاطف العزيز كنت في البيت وفي المكتب! لا. نعم. وانتهى الأمر هنا. غداً صباحا سأسافر إلى القـاهرة لحضور مؤتمر الصحفيين العرب وسأعود الاثنين أو الأحد.. هل سأجدك هنا؟ سيكون عنواني هناك: (بواسطة مروان كنفاني، جامعة الدول العربيـة، قسم فلسطين). اكتبي لي، فقد يكون المطر غزيراً هناك، أحتاج إلى حروفك لأفرش أمامها راحتيّ التواقتين لك!.

بلى. خبر مهم: أحدهم وزّع خبراً على الصحف يوم الجمعة الماضي: «سيتم في جو عائلي، خلال الأسبوع القادم، زفاف الزميل غسان كنفاني على الأديبة المبدعة غادة السمان..» المحررون في الصحف عرفوا فرموا الخبر. في آخر لحظة اتصل بـي زميل من صحيفة ما يريد أن يبارك لي ويعاتبني على عدم إخباره.. ثم أخذ يركض إلى المطبعة فشال السطرين الهائلين عن الطابعة.. مرت العاصفة وأنا غير مكترث.. لم تكن غلطـة الذي دس الخبر ولكن غلطة السنوات الخمس التي مرت، لا شيء. مزيداً من الذين يقولون: سيتعب ذات يوم من لعق حذائها. مسافر من دمشق جاء ليقول لي أن دمشق تتحدث عنكِ، حسنـاً، وعني. قال إن الأوراق الخاصة[2] تظهر أنك معذب ومهزوم وتصطـدم بالـزجاج كـأنك ريـح صغيرة. ثم نظر إلي وأنا صامت وأبلغني: حرام.

اكتبي لي.. لماذا لا تكتبين؟ لـماذا؟ لماذا أيتهـا الشقية الحلـوة؟ أتخافين مني أم من نفسك أم من صدق حروفك؟ أكتبي..

غسان

---

(١) يقصد كمال طعمة، وهو صديق حميم لنا أيضاً وكان يحلو لغسان أن يلقبه مداعباً بأرتين الأسمر.

(٢) أوراق خاصة: عنوان زاوية في **المحرر**.

بيروت ٣١/١/١٩٦٧

عزيزتي غادة ..

وصلتني رسالتان ، فيهما قصاصات من الاوراق الخاصة . بحركة صغيرة ، شيطنة واحدة تقوم بها بعض الحروف اعدتني الى عالمي الحقيقي والتوهج وصلتني بشؤونك واسرني ذكاؤك الذي افتقده عقداً ما افتقد كفيك وكتفيك ..

ايتها الشقية الحلوة الرائعة ! ماذا تفعلين بعيداً عني ؟ اقول لك هنا ما قلته اليوم لك في صفحات الجريدة : " ساترك شعري مبتلاً حتى اجففه في شفتيك ! " انني اذوب بالانتظار كقنديل الملح . تعالي !

احس خلال هذه الايام - اعترف - بشهوة لا مثيل لها . انني اتقد مثل كهف مغلق من الكبريت وامام عيني تتساقط النساء كأن اعناقهن بترت بمناجلك . لأنك صنعت منهن رزمة من السقط [illegible] محزومة بجدولتك العاصفة الطفلة" -- لا . ليس ثمة الا انت . "الى ابدي وابدك وابدهم جميعاً " .. وسأظل امنحك طواعيتي ولأنك حتى لو كنت هواء " .. اتسمعين ايتها الشقية الرائعة ؟ حتى لو كنت هواءً ! ولكنني اريدك اكثر من الهواء . اريدك ارضاً وعقلاً وليلاً ... اريدك اكثر من ذلك . وانت ؟

ليس لدينا اخبار كثيرة هنا . [illegible] عادت فجأة . ارى عاطف وكمال غالباً واحس بسروره مع ارتين ومع مواجعه و"بوزاته" .. عاطف جاء امس ودخل الى المكتب غاضباً وتشاجر مع كمال لانه لم يره منذ فترة ثم سألني : اين كنت يوم السبت ؟ غادة ارسلت شخصاً وفتشت عليك في المكاتب والبيت طوال الليل والنهار ! يا عاطف الذي كنت في البيت وفي مكتبي ! لا . نعم . وانتهى الامر هنا . غداً صباحاً سأسافر الى [illegible] لحضور مؤتمر للصحفيين العرب وسأعود [illegible] .. هل ستأتين هنا ؟ - يكون عنواني هناك : (بواسطة [illegible] ، جامعة الدول العربية ، [illegible]) . اكتبي لي ، فقد يكون هذا [illegible] ، اعتادي ان [illegible] اما عن سامتي الشواقتين لك !

بلى . شيء هام : [illegible] في الصحف يوم الجمعة الماضي : " [illegible] في عالمي ، خلال الاسبوع القادم ، زفاف الزميل غسان كنفاني الى الاديبة المبدعة غادة السمان .. " الذين في الصحف عرفوا فوراً الخبر . في آخر لحظة [illegible] زميل من [illegible] ما يريد ان يبارك لي ويعاتبني على عدم الاخبار .. ثم اخذ يكلمني الى المطبعة [illegible] طرق العاملين في المطبعة .. مرت العاصفة وانا غير مكترث .. لم تكن غلطة الذي دس الخبر ولكنه غلطة السنوات الخمس التي مرت . لا شيء . مزيداً من الذين يقولون : سيتعب ذات يوم من لحوحه هذا [illegible] . ساتركه من [illegible] جاء ليقول لي ان [illegible] ، وعني . قال ان الاوراق الخاصة تظهر انك معذب ومهزوم [illegible] بارتعاش كأنك رجل صغيرة . ثم نظر الي وانا صامت والجفني : حرام !

اكتبي لي .. لماذا لا تكتبين ؟ لماذا ؟ لماذا ايتها الشقية الحلوة ؟ اتخافين مني ام من [illegible] ام من [illegible] ؟ اكتبي ..

[illegible]

هذه العبارة سطرها على مظروف الرسالة من الخارج! (تاريخها ١/٢/١٩٦٧)[1]

أدهشني حين وصلت إلى القاهرة أنني لم أجد
رجلاً ينتظرني هناك ويقول هذه رسالة لك يا سيدي
من لندن..
يذهلني أنني حين أرفع سماعة الهاتف في هذه الغرفة
العالية لا أسمع على الطرف صوتك..
أقول لك: يخيفني أن أرفع رأسي الآن، عن هذه الرسالة،
فلا أجدك جالسة في المقعد المقابل..

---

(١) وحمل لي الرسالة يومئذ من القاهرة المرحوم سليم اللوزي (وكان غسان يكتب في **الحوادث** أحياناً باسم مستعار هو ربيع مطر). وقد اختار اللوزي اسم ربيع لأنه اسم ابنه الوحيد الذي مات صغيراً. وبعد غسان كتب آخرون بالاسم المستعار نفسه، ولا أظن أن كتاباته هذه تم جمعها. وأحب أن ألفت إليها أنظار طلاب الجامعات عسى أن يهتم أحد بجمعها في أطروحة جامعية كما أحب أن أذكر بكتابات غسان في جريدة **المحرر** البيروتية في زاوية أوراق خاصة في فترة عمله هناك إلى جانب كتابات كنفاني آخر الستينات في ملحق جريدة **الأنوار** الذي كان يرئس تحريره وهي كتابات بعضها باسمه وبعضها الآخر باسم مستعار هو فارس فارس.

ادهشني حين وصلت الى الشاطئ انني لم اجد
رجلاً ينتظرني هناك ويقودني الى منزله ان يحييني
مدلهمة ... الاسلاك في هذه المزرعة
يزعجني انني صرت في حاجة
العالية لا اسمع الا الرف صوتي
الا قولان ويخيفني ان اسمع رجع صدى صوتي عند عودة الرسالة
فلا اصدق ما انا فيه في الحاضر

CLEOPATRA
PALACE HOTEL

فندق
كليوپاترا

IN THE HEART OF MODERN CAIRO
TAHREER SQUARE
TEL. 70420 (10 LINES)
TEL. ADDRESS «CLEOTEL»

في قلب القاهرة.. ميدان التحرير
تليفون: ٧٠٤٢٠ (١٠ خطوط)
تلغرافيا: «كليوتيل» القاهرة

ليل ١/٢/١٩٦٧

عزيزتي غادة..

ما الذي حدث؟ تكتبين لكل الناس إلّا لي؟ اليوم في الطائرة قال لي سليم اللوزي أنك كتبت له أو لأميّة[١] لم أعد أذكر، وأمس قال لي كمال[٢] تلقى رسالة منك... وآخرين! فما الذي حدث؟ لا تريدين الكتابة لي؟ لش! ولكن انتبهي جيداً لما تفعلين: ذلك سيزيدني تعلقاً بك!

اليوم صباحاً وصلت إلى القاهرة، وفي الظهر مرضت، ربما لأنني لم أنم أمس إطلاقاً، وربما لأن الطقس تغير فجأة: من البرد الخبيث المتسلل من الجبل إلى بيروت، (إلى قميصي بالذات!) إلى الشمس الصريحة في الدفء الشتوي الرائع هنا.. وهكذا تخلصت من مسؤولياتي في المؤتمر[٣]، وتشاجرت مع شقيقي وقمت بجولة في المقاهي حيث قابلت الأصدقاء وعدت، لأكتب لك!

(١) أمية اللوزي زوجة سليم وهما صديقان حميمان لنا.
(٢) كمال طعمة، صديق مشترك كان يُشاركنا السهر وعاطف السمرا وسواهما من الأصدقاء.
(٣) المؤتمر السياسي لاتحاد الصحفيين العرب وكان غسان منتدباً من إحدى المنظمات لتمثيل فلسطين.

يكبر غيابك في صدري بصورة تستعصي على العلاج، يدهشني أنني لم أجد في المطار شخصاً يقول لي: رسالة لك يا سيدي من لندن. يخفق قلبي كلما دق جرس الهاتف في هذه الغرفة العالية ثم لا أسمع صوتك ينادي، كالوشوشة: «غهسآن!» أقول لك أيتها الشقية: أخاف أن ألتفت هذه اللحظة إلى الكرسي المقابل فلا أراك هناك! ماذا تراك تفعلين الآن؟ أعوّضت غسانك التعيس؟ هل وفقت في استبدال سذاجته وحدّته وضيق أفقه وسخافاته (واستقامته الطفلة) بشيء أكثر جدوى؟ أتعتقدين أنك نجحتِ في طمري تحت أوراق «سقوطهم إلى القمة»[(١)]؟ هل نجحتْ قطع الضباب بلندن في تكوين نعش لذكرياتنا؟ هل جف مرج الشوك الحلو؟ هل ستعودين؟

لو كنتِ هنا. لو كنتِ معي في هذه الغرفة البعيدة العالية لكان العالم. دونك لا يستطيع الجدار أن يخبىء شيئاً. أتراك تشعرين كم يموت عمرنا أمام أعيننا؟ أتراك تحسين وأنت في منفاك الاختياري كم يقتلني خوفك وكم يحز ترددك في أوردتي؟ ثم لا تكتبين! إذا كنتِ تعتقدين إنكِ حرامٌ على يديّ فهل حروفُك حرامٌ على عينيّ؟ ومع ذلك فسأترك بيادر القش تلتهب في صدري وجسدي حتى يأتي ذات يوم تطفؤها فيه راحتاك. أنت. أيتها المرأة قبل ألف مرة من أن تكوني أديبة وكاتبة. أنت، الأديبة والكاتبة والذكية التي تجعل منك ألف امرأة!

إنني مريض حقاً. لا أريد أن أشعرك بأي قلق علي (إن كان ذلك ممكناً)، ولكن الغرفة تدور الآن، وكالعادة أحتاج كما أعتقد إلى نوم كثير... بطاقتك التي وصلتني إلى بيروت (شو هالبرد)[(٢)] كانت رائعة، هل قلت لك ذلك في الرسالة الماضية؟ أريد أن أجد لدى عودتي صندوقاً من الرسائل في حجم شحنة ويسكي. أوصيتُ زميلاً أن يحمل لك ٢٠ علبة

---

(١) اسم رواية كنت أعمل عليها.

(٢) كتبت من لندن إلى غسان بطاقة فيها عبارة واحدة: شو هالبرد!...

(سالم)[١]، سمعت عاطف يقول إنه تلقى منك طلباً بهذا الموضوع، أرجو أن يكونوا قد وصلـوا، إذا وصلوا لا تنفخي مع دخانهم اعتزازي بك، وبكل شيء لك ومنك وعنك.

غسان

اليوم الأربعاء.. أعتقد أنني سأعود السبت إلى بيروت، أريد أن أقرأ منك!.

---

(١) نوع من السجائر.

فندق
كليوباترا

CLEOPATRA
PALACE HOTEL

IN THE HEART OF MODERN CAIRO
TAHREER SQUARE
TEL. 70420 (10 LINES)
TEL. ADDRESS "CLEOTEL"

في قلب القاهرة .. ميدان التحرير
تليفون ٧٠٤٢٠ (١٠ خطوط)
تلغرافيا: كليوتيل - القاهرة

ليل ١/٢/١٩٦٧

عزيزتي غادة .. [illegible]!

ما الذي حدث؟ كتبتُ لك يوم الاثنين، اليوم في الطائرة قال لي [illegible] انه [illegible] او برقية [illegible] ... ولكن اذن ما الذي حدث؟ لا تريدين الكتابة لي؟ معلش! ولكن انتبهي جيداً ما تفعلين: ذلك سيؤذي في [illegible] [illegible]!

اليوم صباحاً وصلت الى القاهرة، [illegible] [illegible] الطريق [illegible] فتاة: [illegible] ... وهكذا [illegible] في [illegible] وتشابهت مع [illegible] في [illegible] [illegible] ، لأكتب لك!

[illegible] في صدري بصورة [illegible] [illegible] في [illegible]: رسالة لك يا سيدي [illegible] في هذه الغرفة العالية ثم [illegible] [illegible] [illegible]: [illegible] الى الكرسي المقابل [illegible]! ماذا تفعلين الآن؟ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]؟ [illegible] [illegible] "؟ [illegible] [illegible] [illegible]؟ هل [illegible] [illegible]؟

لو كنتِ هنا. لو كنتِ معي في هذه الغرفة الجديدة العالية [illegible]. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] امام اعيننا؟ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]؟ ثم [illegible]! اذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المرأة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] التي تجعل [illegible]!

اني [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ")، ولكن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]؟ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]!

[illegible]

[illegible] [illegible] ... [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

مصر للفنادق
MISR HOTELS

CLEOPATRA فندق

PALACE HOTEL كليوباترا

القاهرة ٤/٢/١٩٦٧

عزيزتي الشقية، الضائعة، المسافرة التي لا تتذكر!

غداً ظهراً سأكون من جديد في الفراغ الجديد في بيروت، لقد حدثت أمور شاذة هنا منذ وصلت، فقد أبلغتني المنظمة التي انتدبتني لتمثيل فلسطين في المؤتمر السياسي لاتحاد الصحفيين العرب أنها قررت فجأة، ولأسباب تافهة كما يبدو لم يقدر لي أن أعرفها، أن تقاطع المؤتمر،وهكذا وجدتني فجأة بلا عمل، وجعلني هذا الوضع أكثر استعداداً لأن أسقط في المرض الذي كنت أترقبه بجزع، وأمس حدث ما كنت أتوقعه: فقد أمضيت معظم نهاري في الفراش. كنت في الليلة التي سبقت قد حولت صدري إلى زجاجة معبأة بالدخان المضغوط، دخنت ٦ علب وأمضيت النهار التالي أسعل وأدخن وأسعل وأدخن من جديد، وأمس ليلاً كان جسدي قد تعب من هذه اللعبة واستسلم أمام عنادي وهكذا قمت سهرت عند بهاء[1]، ثم اقتادني الأصدقاء، بعد ذلك، إلى الليل ونمت في الصباح... وغداً الأحد سأعود، إذا لم يطرأ أي جديد.

عبر ذلك كله جئتِ أنتِ، وكنت معي رغم أنفك ورغم جميع الذين كانوا معك والذين كانوا معي، وفكرت بك بهدوء، كما يجلس الإنسان العاقل ليلعب الشطرنج معتزماً أن يربح الجولة بأي ثمن، وقلت لنفسي: يا ولد، أنت أصغر من أن تكون دونها وأعجز من أن تغلق الباب. كان الملك... على رقعة الشطرنج، معذباً وبعيداً عن جواده وقلعته ورغم ذلك

---

(١) أحمد بهاء الدين.

فقد كان يقاتل بكل دمائه النبيلة، ناجحاً في أن يتجنب التلطيخ بوحل الميدان الشاسع وحمأ الهزائم. كان يعرف أن التراجع موت وأن الفرار قدر الكذابين. إنه فارس اسبارطي حياته ملتصقة على ذؤابة رمحه يعتقد أن الحياة أتفه من أن تعطيه وأنه أكبر من أن يستجدي ولكنه يريد أن يأخذ وأن يعطي بشرف مقاتل الصف الأول. ليس لديه ما يفقده ورغم ذلك فهو يعرف أنه إذا فقد هذا الشيء الوحيد الذي يعتز به فإنه سيفقد نفسه. إنه المقاتل والخصم والميدان والسلاح في وقت واحد معاً، فكيف يربح وكيف يخسر؟ كيف يكون التقدم وكيف يكون التراجع: هذه هي أيتها الشقية لعبة شطرنج لا تنتهي، يظل اللاعب حاضناً رأسه الثقيلة بين كوعيه يتبادل النظر مع الملك الصامت على الرقعة المزدحمة بخبب السنابك المهزومة، دون أن تستطيع الجياد مغادرة الرقعة المقطعة بأقدار الرجال والخيول والملوك الذين يذلهم أنهم لم يولدوا على صهوات خيلهم كما تولد التوائم السيامية.

إنني أريدك بمقدار ما لا أستطيع أخذك، وأستطيع أن آخذك بمقدار ما ترفضين ذلك، وأنت ترفضين ذلك بمقدار ما تريدين الاحتفاظ بنا معاً، وأنت وأنا نريد أن نظل معاً بمقدار ما يضعنا ذلك في اختصام دموي مع العالم.. إنها معادلة رهيبة، ورغم ذلك فأنا أعرف بأنني لست أنا الجبان، ولكنني أعرف بأن شجاعتي هي هزيمتي، فأنت تحبين، فيّ، أنني استطعت إلى الآن أن لا أخسر عالمي، وحين أخسره سأخسرك، ومع ذلك فأنا أعرف أنني إذا خسرتك خسرته.

أستطيع أن أكتشف ذلك كله كما يستطيع الجريح في الميدان المتروك أن ينقب في جروحه عن حطام الرصاص، ومع ذلك فهو يخاف أن ينتزع الشظايا كي لا ينبثق النزيف. إنه يعرف أن الشظية تستطيع أن تكون في فوهة العرق المقطوع مثلما تكون سدادة الزجاجة ويعرف أن تركها هناك، وحيداً في الميدان، يوازي انتزاعها. فالنهاية قادمة، لا محالة... ولو كان شاعراً فارساً يمتطي صهوة الصحراء الجاهلية لاختار

أن يموت رويداً رويـداً: يده عـلى كأسـه الأخيرة وعينـه على النـزيف الشريف.

ليقف الفارس في ذلك الخلاء الأجرد ويصيح في وجه الريح: إنني أحبك! فذلك هو قدره الذي تتوازى فيه الخسارة بالربح. إنك الخصب، أيتها الجميلة الشقية.. وليس ثمة إلا أن أنتظرك في غيابك وفي حضورك. في الشمس وفي المطر، تحت تطاير الكلمات من شفاهنا وبين التصاقهما. وثمة حقول من طحلب غير مرئي اسمه الانتظار تنمو على راحتي يدينا حين تمطر فوقهما المصافحة، هناك جسر من الانتظار تشده أهدابنا إلى بعضها حين تتبادل النظر. إن الإنتظار، فيما بيننا، حفرة تكبر كلما عمقت أظافرنا اكتشافها، اننا لا نستطيع أن نردمها بأي شيء فليس في علاقتنا ما نستطيع أن نستغني عنه لنخطو إلى بعضنا فوقه.

اكتبي أيتها الحلوة الذكية. تمسكي بهذا الشيء الذي يستطيع أن يكون إلى الأبد درعك أكثر مما يستطيع أي رداء مبتكـر (وقصير) أن يفعل. بوسعك أن تقتحمي العالم على منقار صقر فما الذي يعجبك في حصان طروادة؟ إنني واثق من شيء واحد: بالنسبة لك الحياة ملحمة انتصار تبدأ من العنق فما فوق، فلتجعلي همك هناك. لغيرك أن يعتقد أن حياته لها قمة هي الكتفان. بوسعك أن تدخلي إلى التاريخ ورأسك إلى الأمام، كالرمح. أنت جديرة بذلك وليس من هو أكثر منك جدارة. اطّرحي مرة وإلى الأبد حيرتك الأنثوية المغيظة بين رأسك وركبتيك فتكسبي مرة وإلى الأبد رأسك ورؤوس الآخـرين وعظمة أنـوثتك وجمـالها الاخـاذ الصاعق المفعم بالكبرياء. إنني أحبك كما لم أفعل في حياتي، أجرؤ على القول كما لم يفعل أي إنسان وسأظل. أشعر أن تسعة شهور معك ستظل تمطر فوق حياتي إلى الأبد. أريدك. أنتظرك وسأظل أريـدك وأنتظرك، وإذا بدّلك شيء ما في لندن، ونسيت ذات يوم اسمي ولون عينيّ فسيكون ذلك موازٍ لفقدان وطن. وكما صار في المرة الأولى سيصير في المرة الثانية: سأظل أناضل لاسترجاعه لأنه حقي وماضيّ ومستقبلي الوحيد. لأن لي فيه

شجرة وغيمة وظل وشمس تتوقد وغيوم تمطر الخصب وجذور تستعصي على القلع.

أكتبي لي. هذه اللحظة وقولي: سأظل معك وسنظل معاً.

غسان

القاهرة ٤/٢/٦٧

عزيزتي الشقية، الصادقة، الجائزة التي لا تتذكر!

غداً ظهراً سأكون من جديد في الفراغ الجديد في بيروت، لقد حدثت أمور هامة هنا منذ وصلت، فقد ابلغتني المنظمة التي انتدبتني لتمثيل فلسطين في المؤتمر الآسيوي الأفريقي للصحفيين انها قررت فجأة، ولأسباب تافهة كما يبدو لم يقدر لي ان افهمها، ان تقاطع المؤتمر، وهكذا وجدتني فجأة بلا عمل، وجعلني هذا الوضع أكثر استعداداً لأن اسقط في المرض الذي كنت أترقبه بجزع. وأسوأ ما حدث ما كنت أتوقعه: فقد امضيت معظم الوقت في فراشي. كنت في الليلة التي سبقت قد حولت صدري الى زوبعة محشوة بالدخان المضغوط، ودخنت ٦ علب وأمضيت الوقت الباقي أسعل وأرتجف وأسعل وأرتجف من جديد وأستنجد. كان صدري قد تعب من هذه اللعبة واستسلم امام عنادي وهكذا تمت فـ[illegible] عند [illegible]، ثم افتقدني الأصدقاء، بعد ذلك الى الليل ونمت في الصباح ... وغداً الأحد سأعود، الا لم يطرأ أي جديد.

مع ذلك كله كنت أنت، وكنت معي رغم الثقل ورغم جميع الذين كانوا معي والذين كانوا معي، وفكرت بك بهدوء، كما يجب من إنسان العاقل ليلعب الشطرنج معترفاً ان يربح الجولة بأي ثمن، وقلت لنفسي: يا ولد، انت اصغر من ان تكون دونكي شوت وأعجز من ان تفتح الباب. كان [illegible]، في قصة الشطرنج، متعباً وبعيداً عن جواده وقلعته ورغم ذلك فقد كان يقاتل بكل رماحه النبيلة، انه في ان يجنب التراجع بوصل الميدان لشاسع وصما الهزائم. كان يعرف ان التراجع موت وان الفوز قدر للكاذبين. انه فارس اسبارطي حياته ملتصقة في ذؤابة رمحه يفتقد ان الحياة اتفه من ان تعطيه وانه اكبر من ان [illegible] يستجدي ولكنه يريد ان يأخذ وان يعطي شرف يقاتل الصف الأول. ليس لديه ما يفقده ورغم ذلك فهو يعرف انه اذا فقد هذا الشيء الوحيد الذي يعتز به فانه سيفقد نفسه. انه يقاتل والخصم والميدان والسلاح في وقت واحد معاً، كيف يربح وكيف يخسر؟ كيف يكون يتقدم وكيف يكون التراجع، هذه هي أشياء تبنيه لعبة شطرنج يا عزيزتي، تلك اللعبة ما ضعنا "يا ابن الشقية" [illegible] كوجهه يتبادل النظر مع تلك الصامتة في الرقعة المزدحمة [illegible] بجنب السنابك المزوقة، دون ان تستطيع الابتعاد مغادرة الرقعة المشتعلة بأقدار الرجال والخيول والحلول الذين يظلهم المساء ويلدوا في صهوات خيلهم كما تولد التوائم السيامية.

انني اريدك بمقدار ما لا استطيع اخذك، واستطيع الآن اخذك بمقدار ما ترفضينني، وانت ترفضينني ذلك بمقدار ما تريدين ان تحافظي بنا معاً، وانت وانا نريد ان نظل معاً بمقدار ما يضعنا ذلك في انفصام دون مع انتمام .. انها معادلة رهيبة، ورغم ذلك فانا أعرف بأنني [illegible] الى الإيمان، ولكني احب ايضاً شيئاً في شيء تعرفينه، فانت تحبين، حتى، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وصدافره سأفسره، ومع ذلك

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

فندق

كليوباترا

CLEOPATRA PALACE HOTEL

في قلب القاهرة .. ميدان التحرير
تليفون ٧٠٤٩٠ (١٠ خطوط)
تلغرافيا: "كليوتيل" القاهرة

IN THE HEART OF MODERN CAIRO
TAHREER SQUARE
TEL. 70490 (10 LINES)
TEL. ADDRESS "CLEOTEL"

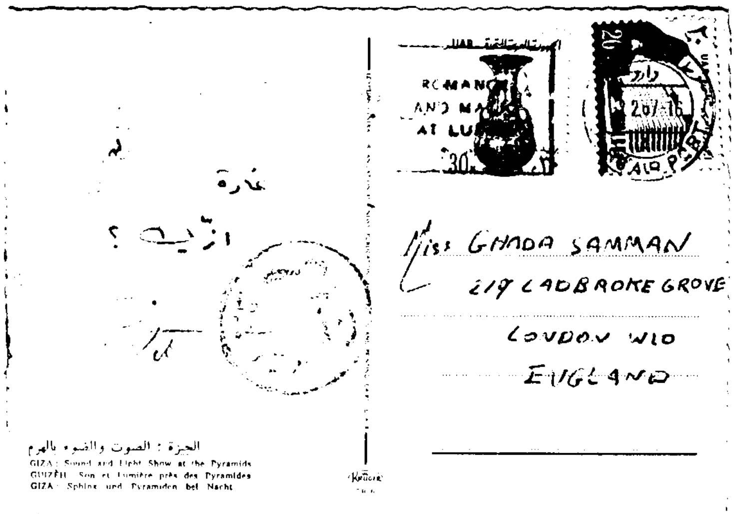
استطيع ان اكتشف ذلك كله كما يستطيع الجريح في ميدانه المتروك ان ينقب في جروحه عن حطام الرصاص، ومع ذلك فهو يخاف ان ينتزع الشظايا كي لا ينشر النزيف. انه يعرف ان الشظية تستطيع ان تكون في فوهة الجرح المقطوع مثلما تكون سدادة الزجاجة ويعرف ان تركها هناك، وحيداً في الميدان، يوازي انتزاعها. فالنتيجة قاتمة، بالحالة ... ولو كان شاعراً فانه يعطي صورة المحارب الجاهلي الذي اختار ان يموت رويداً رويداً: يده على كأس الخمرة وعينه على النزيف الشريف.

ليقف الفارس في ذلك الخلاء الابدي ويصيح في وجه الريح: انني احبك. إن ذلك هو قدره الذي تتوازى فيه الشارة بالريح. انه المغضب، انه جميلة الشقية.. وليس ثمة الا ان انتظرك في غيابك وفي حضورك. في الشمس وفي المطر، تحت تهاوي الكلمات من شفاهنا وبين اصابعنا. وثمة عقود من حجب غير مرئي اسمه الانتظار تنمو على راحتي يدينا حين تمطر فوقها المصافحة، وهناك جسر من الانتظار تشده اهدابنا الى بعضها حين نتبادل النظر. ان الانتظار، فيما بيننا، حفرة تكبر كلما عمقت اظافرنا اكتشافها، اننا لا نستطيع ان نردمها بأي شيء فليس في علاقتنا ما نستطيع ان نستغني عنه لنخطو الى بعضنا فوقه.

اكتبي الي حلوة لذكية. تمسكي بهذا الشيء الذي يستطيع ان يكون الى الابد درعك الذي لا يستطيع اي رداء مبتكر (وقصير) ان يفعل. بوسعك ان تتحدي العالم مع منقار عصفور فما الذي يجعله عصافيرك طوارة؟ انني واثق من شيء واحد: بالنسبة للحياة ملحمة انتصار تبدأ من العنقود فما فوقه، فتتجلى هي هناك. لعلك ان تعتقدي ان حياتك ليست قيمة في الكتفان. بوسعك ان تدخلي الى التاريخ ورأسك الى الامام، كالرمح. انت جديرة بذلك وليس من هو اكثر منك جدارة. اطرحي مرة والى الابد حيرتك بالشوق المخيطة بين رأسك وركبتيك، فتكسبي مرة والى الابد رأسك ورؤوس الآخرين وعظمة الوشك وجمالها، الصعود المفعم بالكبرياء. انني احبك كما لم احفل في حياتي، ابداً لم اقول كما لم يفعل اي انسان وسأظل. اشعر ان تسعة سنوات معك ستظل تعطر فوهة حياتي الى الابد. اريدك. انتظرك وسأظل اريدك وانتظرك، واذا بدلك شيء ما في لندن، ونسيتك ذات يوم، حتى ولو نسيت عيني سيكون زمن موات لفقدانه وطني. وكما صار في المرة الاولى سيصير في المرة الثانية: سأظل اناضل لاسترجاعه لانه حقي وماضي ومستقبلي الوحيد. لأن لي فيه شجرة ونجمة وظل وشمس تتوقد وغيوم تمطر الخصب، وجذور تستعصي على القلع.

اكتبي لي. هذه اللحظة رقوق: سأظل نحوك وسنظل معاً.

بدون تاريخ



غادة

ازيّك

غسان

Miss Ghada Samman

219 Ladbroke Grove

London W10

England

بيروت ٣ نيسان ١٩٦٧

يا غادة!

تلقيت رسائلك جميعاً، ولم يؤخرني عن الجواب إلا ذلك الغرق المخيف في أشغال لا نهاية لها توجها مؤتمر الكتاب الأفروآسيوي الذي عقد هنا خلال الأسبوع الماضي وشغلني من الفجر إلى النجر.. كان اسمك في قائمة الكتّاب الذين يمثلون سوريا وكنت أقرؤه كل يوم، وأقول مثلما قلتِ في إحدى رسائلك: إن ما يدور مفجع حقاً!

وعبر هذا الازدحام الذي لا مثيل له أنهمك كالمصاب بالصرع في كتابة المسرحية التي تحدثنا عنها في السيارة ذات يوم، ذات ليلة.. إنني أستشعر وأنا أكتبها طعم صوتك وبريق عينيك الإلهيتين في تلك الليلة النادرة التي كناها معاً (أواه كم كان ذلك نادراً ومفاجئاً وقصيراً!) وأحس كفيك على جبيني المحروق تستحثني مثلما يستحث المهماز خاصرة الأصيلة. أسميتها «حكاية الشيء الذي جاء من الفضاء وقابل رجلاً مفلساً» وأمس اقترحت لنفسي عنواناً آخر: «النبيّ والقبعة» على أساس أن القبعة تستر رأس الرجل من الخارج والنبيّ يستره من الداخل.. وما زلت في حيرة، ولكن المسرحية تمشي على ما يرام. إنني أكتبها لك!

لنعد إلى رسائلك الرائعة ورسائلي «المفجعة».. أجل، أيتها الشقيّة، أنا غاضب ومهرق ومطعون.. كنتِ تلك الليلة مريعة. آخر ليلة. كنتِ مثلما أردتك دائماً معي وحدي ولكنك لم تكوني معي، وكان هو[١] وكنتِ سعيدة

---

(١) أحد أصدقائي، وصل من دمشق فجأة، فسهرت معه عشية سفري ومع غسان الذي تضايق من حضوره.

إلى حد زلزلني صوتك الضاحك وفتح في رئتيّ جرحاً ما زلت أحس نزيفه يبلل قميصي: لقد عملتُ في المكتب مثل كلب لاهث، ألغيت، لأول مرة في حياتي، دعوة كنت وجهتها لصديق مسافر في اليوم التالي وركضت إليكِ: لا! إن ذلك لا يحتمل.

وأمس فقط وصلتني رسالتك التي يقول أولها غسان ويأتي توقيعك في آخرها وبين هذين القلبين السياميين فراغ ثقيل يملؤه البياض: أبغض الألوان إليّ. وفكرت أن أملأ ذلك الفراغ. أن أكتب عنك لنفسي شيئاً. أن أجيب على هذا السؤال الذي طرحته ورقتك البيضاء في وجهي: ما الذي أريد أن تقوله لي؟ قلت: سأكتب: «أنا لكَ» ولكن ذلك ـ حتى ذلك ـ لم يكن يكفي. قلت سأكتب: «أحبك وأريد أن..» أريد ماذا؟ وعدتُ فقرأت رسائلك جميعاً وأنا أرتجف.. آه يا غادة.. أيتها الشقية التي لم ترتطم إلا بالشقيّ!.

دونك أنا في عبث. أعترف لك مثلما يعترف المحكوم أخيراً بجريمة لم يرتكبها وهو في طوق المشنقة، كي يبرر لنفسه نهاية لا يريدها.

أنا أعرف أنك لن تعودي إلى هنا. كنت أعرف ذلك منذ البدء، تماماً حين كنتِ، بذكائك الذي يخونك حين تكذبين، تقولين لي كم سيكون مستقبل علاقتنا مستقراً... وكنتُ أبكي بتلك الدموع المروّعة (التي لا تُرى) مرتين: مرة لأنك ستمضين ومرة لأنك تشكّين برأسي!

وكيف حالك الآن؟ كم صار سُمْك الغبار الذي راكمته لندن فوق وجهي؟ أما أنتِ فقد دخلت إلى عروقي وانتهى الأمر، إنه لمن الصعب أن أشفى منك.

لقد كانت رسائلك رائعة وحادة. حمّلني عذابُك ولؤمك ثقل المسؤولية والشعور بالذنب ولكن ذلك لم يكن له علاقة بالاقتناع: إنني أريدك وأحبك وأشتهيك وأحترمك وأقدس حرفك.. ولست أقبل تلوين ذلك بأي طلاء أو وضعه في صيغ التحفظ. لا. لست عاجزاً عن إعطاء أكثر مما أعطيت ولكنك دائماً ـ أنتِ ـ التي كنت عاجزة عن الأخذ. كنت تحسبين

نبضي ونبضك على جدول اللغرايتمات، كنت تختارين مني أسوأ ما فيّ وتمزجينه مع ما اخترتِ من أسوأ تجاربك، وكانت الحصيلة قزماً توقعتِ منه أن يدخل فرحاً إلى غرفة أنت فيها بملابس النوم مع رجل آخر، عشية غيابك،! لقد قتلت فيّ الرجل لتعبدي وهماً ليس أنا.. ووجدتِ في اندفاعي فرصتك لتريْ كيف تستطيعين تعذيبي!

وكان عليك أن تتوقعي ما حدث: لم أصدق قط أنك ضد أخذ العلاقة إلى مداها. أنت امرأة حقيقية حتى كعب حذائك وقد عرفتُ ذلك. إذن ما الذي كان يرغمك على بناء جدار الجليد؟ رجل آخر؟ مزيداً من الذل؟ أمور أكثر تعقيداً؟ لماذا لم تعتقدي لحظة أنني قد آخذ من هذه الاتهامات متراساً أصد به الرماح التي كانت تنال من رجولتي ورغم ذلك: أنظري ما الذي ضيّعناه! انظري! عام كامل من المشي على الزجاج المطحون لماذا؟ من المسؤول؟ كيف تريدين أن أتصرف؟ هاك دواء يصلح للتحنيط، ضعيه في عروقي واجعلي مني شطرين أسند رف كتب تافه في غرفة لك، لا أعرف من فيها!

تريدين أن تقولي أن روعة علاقتنا كانت في أنها لم تكن؟ إنني لا أصدق. ولست أريد أن أصدق. إنني لا أقيس جسدي بصيغ التهرب والخذلان، وأقول لك: اليوم وغداً وإلى الأبد أنك أهنتِ فيّ ما أعتز به أكثر مما كتبتُ وأكتبُ وسأكتب.

يبدو أننا سنتشاجر مرة أخرى.. ولكن أرجوك يا غادة. اجلسي لنفسك قليلاً واستعيدي ما فعلته بي عاماً كاملاً، كان الصمت أكثر من الكلام. كان البعد أكثر من القرب. كان الوهم أكثر من الحقيقة. كان الرفض أكثر من القبول. كان التحايل أفظع من المواجهة... لقد حرصتِ مثلاً في الأيام الأخيرة على المطالبة بأسطواناتك بانتظام وبإصرار، ولكنك أبداً لم تفكري بكم أحتاج لآلة التصوير ولأسطواناتي.. وسافرتِ دون أن تكترثي!

إنها تلخص شيئاً أكبر من مجرد هذه الأشياء: لو فكرتِ قليلاً. لو

عدلتِ. لو أعدتِ بينك وبين نفسك تقييم ما كنتِه لي وما كنته لـك... لو عرفت أنني في عام كامل كنتُ دائماً عندك ولك!

يا حبيبتي الشقيّة.. ما الذي يبقى؟ ما قيمتي الآن دونك وما نفع هذا الضياع ونفع هذه الغربة؟ لم يكن أمامنا منذ البدء إلا أن نستسلم: للعلاقة أو للبتر، ولكننا اخترنا العـلاقة بـإصرار إنسانـين يعرفـان ما يريدانه.. لقد استسلمنا للعلاقة بصورتها الفاجعة والحلوة ومصـيرها المعتم والمضيء وتبادلنا خطأ الجبن: أما أنا فقد كنت جباناً في سبيـل غيري، لم أكن أريد أن أطوّح بالفضاء بطفلين وامرأة لم يسيئوا إليّ قط مثلما طوّح بي العالم القاسي قبل عشرين عاماً، أما أنت فقد كان ما يهمك هو نفسك فقط.. كنت خائفة على مصيرك وكنتُ خائفاً على مصير غيري، وقد أدى الارتطام إلى فجيعة لا هي علاقة ولا هي بتر.. أتعتقدين أننا كنا أكثر عذاباً لو استسلمنا للقطيعة أو لو استسلمنا للعلاقة؟ لا!

أم أنـا فأريـد العلاقـة. ذلك «الاستسـلام الشجاع»[1] لحقيقة الأشياء... تحدثتِ أنت عن «أكثر الميتات كرامة».. هل تقولين أينها؟ في العلاقة أم البتر؟ قولي شيئاً بحق الشياطين!

سأظل أكتب لك. سأظل. وسأظل أحبك. وستظلين بعيدة.. وستظل قدمي تنتفض باتجاه مكبح السيارة كلما مررت في رأس النبع[2] وشهدت سيـارتك واقفـة هناك عـلى الـرصيف.. أنت تسكنـين فيّ. أنتِ. وليس «كلماتك» كما كتبتِ لي. أنتِ!

..لكِ

غسان كنفاني

---

(١) تعبير من رسالة كتبها لي ونشرها في ملحق **الأنوار** على النحو الذي نراه في ص ٩٤ من هذا الكتاب. وهي ككل نصوص غسان كنفاني الوجدانية الشعرية ما تزال تنتظر جمعها في كتاب يضاف إلى أعماله الكاملة.

(٢) حيث بيت الصديق عاطف السمرا سكرتير تحرير مجلة **الاسبوع العربي** ، يومئذ، والذي استودعته سيارتي حين سافرت.

هام: كان أحمد بهاء الدين عندي اليوم وطلب مني «جاداً ورسمياً» أن أكتب لك رجاءه ورجاء مؤسسته (دار الهلال) بأن تكتبي «للمصوّر» من لندن رسائل أدبية وفنيـة وإذا شئت سياسية بأسلوبك. إن المصوّر مجلة جادة وذات توزيع مرتفع وتدفع أسعاراً جيدة.. إذا رغبتِ بذلك ابعثي له رسالة إلى دار الهلال في القاهرة.. إن ذلك في رأيي فرصة جيدة ومفيدة، وسيكون الاتفاق واضحاً: يحوّلون لك الفلوس إلى لندن أو يفتحون بها حساباً لك في القاهرة ـ إنه يهديك تحياته أيضاً..

بيروت ٣٠ نيسان ١٩٦٧

يا غادة!

تلقيت رسائلك جميعاً، ولم يؤخرني عن الجواب الا ذلك الغرق المخيف في انشغال لا نهاية لها توجه مؤتمر الكتاب الافرو آسيوي الذي عقد هنا خلال الاسبوع الماضي وشغلني من الفجر الى الفجر.. كان اسمك في قائمة الكتاب الذين يمثلون سوريا، وكنت اقرؤه كل يوم، واقول مثلما قلت في احدى رسائلك: "ان ما يحدث مضحك حقاً"!

وعبر هذا الازدحام الذي لا مثيل له انهمك كالمصاب بالصرع في كتابة مسرحية التي حدثتك عنها في السيارة ذات يوم، ذات ليلة.. انني استشعر وانا اكتبها طعم صوتك وبريق عينيك الاستثنائي في تلك الليلة النادرة التي كناها معاً (اواه كم كان ذلك نادراً ومفاجئاً وقصيراً!) واحس كفيك على جبيني الحروف تستقطبني مثلما يستقطب المغناطيس [illegible] الدبابيس.. انها "حكاية الشيء الذي جاء من الفضاء وتابع رحلة مفلساً" واحب اقترحت لنفسي عنواناً آخر: "النبي والقبعة" مع امتناني ان القبعة تستر رأس رجل من الخارج والنبي يستره من الداخل.. وما زلت في حيرة، ولكن مسرحية تمشي مع ما يرام. انني اكتبها لك!

لقد الى رسائلك الرائعة رسالتي "المخجلة".. امس، استرع اشفقته، انا غاضب ومهزوم ومطعون.. كنت تلك الليلة مريضة. آخر ليلة. كنت مثلما اردتك دائماً معي وحدي، ولكنك لم تكوني معي، وكان هو وكنت بعيدة الى حد زلزلني صوتك الضاحك وفتح في رئتي جرحاً ما زلت احس نزيفه يبلل قميصي: لقد جمعت في المكتب حتى كلب لا لهث، الغيرة، لا ولادة، حياتي، دعوة كنت وصرت لصديق مسافر في اليوم التالي وكتبت الرسالة: لا! ان ذلك لا يكفي.

واسف فقط وصلتني رسالتك التي تقول اولها "غسان" و"انا" توقيعه في آخرها وبين هذين القوسين السياميين فراغ يقف بجلوه البياض: "بعض الوقت الحي". وقررت ان احشد ذلك الفراغ، ان اكتب عنك لنفسي شيئاً، ان اجيب عن هذا السؤال الذي طرحته ورقتك البيضاء في وجهي: ما الذي اريد ان تقوليه لي؟ قلت: سأكتبه "انا انا"، ولكن ذلك – حتى ذلك – لم يكن يكفي. قلت سأكتبه: "احبك واريد ان.." اريد ماذا؟ وعدت مرات رسالتك صمتاً وانا ارتجف.. آه يا غادة.. استرع الشفقة التي لم ترحم الا الاسترقاق!

وشعرت اني في عبث. اعترف لك مثلما يعترف المحكوم اخيراً بجريمة لم يرتكبها وهو في ضوء الشفقة، لكي يرى لنفسه نهاية لا يريدها.

انا اعرف انك لن تعودي الى هنا. كنت اعرف ذلك منذ البدء، تماماً حين كنت في مكانك الذي تحوليه حين تكذبين، تقولين لي كم سنكون سعيدين عن قربنا [illegible].. وكنت ابكي تلك الدموع المروعة (التي لا تُرى) مرتين: مرة لانك ستمضين ومرة لانك تشككين برأسي!

وكيف حالك الآن؟ كم صار شَعر الغبار الذي رأيته لدى فوقه وحلك؟ اما انتِ، لقد وصلت الى عروقي وانتهى الامر، انه من الصعب ان استشفي منك.

لقد كانت رسالتك رائعة وحارة. حتى عذابك ولومك تقل مسؤولية والشعور الذنب ولكن ذلك لم يكن من طريقه بالاقناع: انني احبك واصلي واستحقك واحترمك عاجزاً عن اعطاء اكثر مما اعطيته او وضعته في صيغة الحفظ. لا. لست تجهلين تحسين نفسي وتقضي مع جدول الخرافات... ولكن دائماً – احترم – التي كنت عاجزة عن الاخذ. كنت في وترحيبه مع ما افترضه اسوأ ما [illegible] ان يدخل فرحاً الى غرفة انت فيها بل الموم مع رجل آخر، وكانت الحصيلة قرفاً توقعت منه لقد قتلت في الرجل لتتحدي وتما ليس انا.. وقد نحرر في اندفاعي فرحتك لتركي كنت تتعشقين تحديي.

وكان عليك ان تتوقعي ما حدث: لم اصدق قط انني صد الحد الحارقة

الى هذا الحد.. انت امرأة متعبة حتى كعب حذائك وقد عرفت ذلك .. اذن ما الذي كان يرغمك على بناء هذا الجليد ؟ رجل آخر ؟ وريداً من الذل ؟ اكبر [illegible] اكثر بخساً" ؟ لماذا لم تختصري لحظة اني قد آخذ من هذه الرعشات متراسا" احمد [illegible] من برنامج التي كانت تنال من رجولتي ؟ ورغم ذلك .. انظري ما الذي تستثمانه .. انظري .. عام كامل من الحسى مع الزجاج المكسور " لماذا ؟ من المسؤول ؟ كيف تريدين ان انصرف ؟ هناك دواء يصلح للاحتياط ، منحته في عروقي واصابعي مني .. سطري السنوات كيف تأته .. تعرفينه ذلك ، لا اعرف بين غيري !

تريدين ان تقولي ان روعة علاقتنا كانت ، انها لم تكن ؟ انني لا اصدقه .. ولست اريد ان اصدق .. انني لا اقيس حسدي بصيح التعرق وانظراته .. ما اقول لك .. اليوم ، بعد ذاك الامر ، انك الهشّ في ما اعتبره ، انك ما كنت ، الكنت وسأكنت

يبدو انا سنشهد مع اوك .. وكنت ارتون ما عادة .. اجلس بنفسه طويلا واستعرض تاريخه في عاما كاملا .. كان الصمت اكثر من الكلام .. كان الهدوء اكثر من اللغو .. كان الوهم الكثر الفشعة .. كان الرفض اكثر من القبول .. كان التخاذل انطلق من مواجهة .. لقد عرفت شئنا" في الايام الاخيرة مع المطالبة .. استطوناته بانتظام واصرار .. ولكنك ابدا" لم تفكري كم احتاج الى آلة التصوير ولاسطواناتي .. وسافرت دون ان تتركي !

انك تحطين سنلنا" اكثر من فحوى هذه الاسفار .. لو فكرت قليلا" .. لو عدلت .. لو الحب بينك وبين نفسك تقييم ما كنته لي وما كنته لك .. لو عرفت انني في عام كامل كنت دائماً عندك ولك !

يا حبيبتي الشقية .. ما الذي يبقى ؟ ما قيمتي الآن دونك وما نفع هذا الضياع ونفع هذه الغربة ؟ لم يكن امامنا منذ البدء الا ان نستسلم : للعلاقة او للبتر .. ولكننا افترنا العلاقة باصرار [illegible] انسانين يعرفان ما يريدانه .. لقد استسلمنا للعلاقة بصورتها الناصعة والحلوة ، بصورها المعتمة والمضيئة وتبادلنا حظا" الجنون .. اما انا فقد كنت جبانا" في سبيل عمري ، لم اكن اريد ان اطوح بالفضاء بطفلين وراءه لم يسيئوا الي قط حتى طوّح بي العالم القاسي قبل عشرين عاما" .. اما انت فقد كان ما يهمك هو نفسك فقط .. كنت خائفة مع مصيرك وكنت خائفا" مع مصير عمري .. وقد ادى الانتظام الى مجموعة لا هي علاقة ولا هي بتر .. اتعترفين انا كنا اكثر عذابا" لو استسلمنا للقطيعة او لو استسلمنا للعلاقة ؟ لا !

اما انا فاريد العلاقة .. ذلك "الاستسلام الشجاع" لحقيقة الاشياء .. لقد كنت انت عند [illegible] اكثر البنات كرامة .. هل تحولين اليه ؟ الى العلاقة ام الى البتر ؟ قولي شيئا" كهم الشياطين !

سأظل انتظرك .. سأظل ، وسأظل احبك .. وستظلين بعيدة .. وستظل قدمي تنتفض باتجاه مكتب السعادة كلما مررت في رأس النبع وتذكرت سيارتك واقفة هناك على الرصيف .. انت تسكنين فيّ .. انتِ .. وليس كلماتك .. كما كتبتِ لي .. انت !

لك ..

غسان

هام : كان احمد .. عندي اليوم وطلب مني "هاداً ورسمياً" ان اكتب لك رجاءه ورجاء مؤسسة (دار الهلال) بان تكتبي "للمصور" من لندن رسائل ادبية وفنية واذا شئت سياسية .. باسلوب ان المصور مجلة جادة وذات توزيع مرتفع وتدفع اسعاراً جيدة .. اذا رغبت بذلك ابعثي له رسالة الى دار الهلال في القاهرة .. ان ذلك في رأيي فرصة جيدة ومفيدة ، وسيكون الاتفاق واضحاً : كونك لك الغلوس الى ان يستوعب هذا [illegible] القاهرة .. انه يرحب كتابة ايضاً ..

غسان

١٩٦٧/٤/١١

غادة..

لست أعرف ماذا يتعين عليّ أن أكتب لك.. لقد أرسلت لك رسالة مطولة منذ أسبوع، ومع ذلك فرسائلك تقول أنك لم تتسلمي شيئاً، وأنا أشعر بالذنب، وأخشى أن تعتقدي للحظة أنني ألعب دوراً، أو أن نبضي لك قد أخذ يخفق في فراغ، أو أنه صمت، أو أنه اتجه نحو مرفأ آخر: دونك أيتها الغالية لا شيء ولا أحد.. وغيابك ـ ليكن من يكن الذي سيختاره ـ لن يعوض.. بعدك مستحيل. دونك لا شيء ولكن غيرك غير ممكن.

أنت في جلدي، وأحسك مثلما أحس فلسطين: ضياعها كارثة بلا أي بديل، وحبي شيء في صلب لحمي ودمي، وغيابها دموع تستحيل معها لعبة الاحتيال.

لقد وقع الأمر، ولا فرار.. العذاب معك له طعم غير طعم العذاب دونك، ولكنه، دائماً، عذاب جارح، صهوة تستعصي على الترويض.

إنني أكره ما يذكرني بك، لأنه ينكأ جراحاً أعرف أن شيئاً لن يرتقها. أنا لا أستطيع أن أجلس فارتق جراحي مثلما يرتق الناس قمصانهم... ويا لكثرة الأشياء التي تذكرني بك: الشعر الأسود حين يلوّح وراء أي منعطف يمزّع جلدي، النظارات السود ما تزال تجرحني.... السيارات، الشوارع، الناس، الأصدقاء الذين تركتِ على عيونهم بصماتك، المقاعد، الأكل، الكتب، الرسائل، المكتب، البيت، الهاتف، كل ذلك، كله.. هو أنت، وقبله: أذكرك طالما أنا أنا.. وحين أنظر

إلى كفّي أحسك تسيلين في أعصابي.. وحين تمطر أذكرك، وحين ترعد أسأل: من معها؟ وحين أرى كأساً أقول: هي تشرب؟ ثم ماذا؟

لقد صرتِ عذابي، وكتب عليّ أن ألجأ مرتين إلى المنفى، هارباً أو مرغماً على الفرار من أقرب الأشياء إلى الرجل وأكثرها تجذراً في صدره: الوطن والحب.

وإذا كان عليّ أن أناضل من أجل أن أسترد الأرض فقولي لي، أنت أيتها الجنية التي تحيك، كل ليلة، كوابيسي التي لا تحتمل.. كيف أستردك؟

أقول لك، دون أن أغمض عينيّ ودون أن أرتجف: إنني أنام إلى جوارك كل ليلة، وأتحسس لحمك وأسمع لهاثك وأسبح في بحر العتمة مع جسدك وصوتك وروحك ورأسِك، وأقول وأنا على عتبة نشيج: يا غادة يا غادة يا غادة...

وأغمض عينيّ.

وحين أكتب ليس ثمة قارىء غيرك، وحين أقود سيارتي في تعب الليل وحيداً أتحدث إليك ساعات من الجنون، أتشاجر، أضحك، أشتم السائقين، أسرع، ثم أقف: أحتويك وأقبلك وأنتشي.

إنني على عتبة جنون ولكنني أعرف قبل أي إنسان آخر أن وجودك معي جنون آخر له طعم اللذة، ولكنه ـ لأنك أنتِ، التي لا يمكن أن تُصلح في قالب أريده أنا ـ جنون تنتهي حافته إلى الموت!

أمس رن الهاتف في المنزل، ورفعت السماعة.. لم يكن ثمة أحد يتكلم على الطرف الآخر وهمست، بعد لحظة، بصوت جبان: غادة؟

وهذا كله لا يهمك.. أنت صبيّة وفاتنة وموهوبة.. وبسهولة تستطيعين أن تدرجي اسمي في قائمة التافهين، وتدوسي عليه وأنت تصعدين إلى ما تريدين.. ولكنني أقبل.. إنني أقبل حتى هذه النهاية التعيسة!

ماذا أقول لك؟ إنني أنضح مرارة.. يعصر لساني الغضب مثلما

يعصرون البرتقال على الروشة، لا أستطيع أن أنسى، ولا أستطيع أن أبعد عن وريدي شفرة الخيبة التي بذلتِ جهداً، يشهد الله كم هو كبير، لتجعلينني أجترعها بلا هوادة!

ماذا يهم؟ ها أنتِ تكتبين الآن وأنتِ على بعد ألفي ميل ما كنت تستطيعين أن تقوليه حين كنا يداً في يد... ومع ذلك فهاتي الحب! كيف؟ كيف؟

لا أعرف ماذا أريد. لا أعرف ماذا أكتب. لا أعرف إلى أين سأنتهي. والآن ـ خصوصاً ـ أنا مشوش إلى حد العمى: إن النقرس يفتك بي مثل ملايين الإبر الشيطانية. اشفقي عليّ أيتها الشقية... فذلك، على الأقل، شيء يقال.

قلتِ: نتحادث في الهاتف.. أما أنا فليس لدي قرش أستطيع أن أصرفه، وأن أصرفه خصوصاً على عذاب لا أحتمله. لقد تقوّض هذا الشيء الذي كنته، وأنا حطام، وأعرف أن ذلك شيء لا يسرّك كثيراً، ولكنه حدث: عنوان القصة.

حازم[1]؟ أجل حازم، من نوع أكثر صميمية: إنني أكثر شجاعة منه في وجه العدو المعذِّب، ولكنني أقل منه شجاعة في وجه الحب.

إنني أعطيك بطل قصة، مخلوق جدير بالتفحص في أنبوب اختبار.. وسأكون سعيداً لو عرفتِ كيف تكتبين عن رجل أحبك حقاً، ولم يخطىء معك، وظل يحترمك، ولم يكترث بأيما شيء في سبيلك... دون أن تمنحيه بالمقابل شيئاً إلا «آذان الآخرين» والاغتراب والصمت.

لا!

لا تتحدثي معي بالهاتف.. اكتبي لي كثيراً.. أنا أحب رسائلك إلى حد التقديس، وسأحتفظ بها جميعاً وذات يوم سأعطيها لك.. إنها ـ أيتها الشقية ـ أجمل ما كتبتِ وأكثرها صدقاً..

---

(١) أحد أبطال قصص كتابي **ليل الغرباء**.

كنتُ قلتُ لك في رسالتي السابقة انهم يريدونك لتكتبي للمصور من لندن.. حاولي أن تفعلي، واكتبي لأحمد بهاء الدين.

أرجوكِ: أكتبي لي.

غسان كنفاني

١١/٤/١٩٦٧

غادة..

لست اعرف ماذا يتعين علي
ان اكتب لك.. لقد ارسلت لك رسالة
مطولة منذ اسبوع، ومع ذلك فرسالتك
تقول انك لم تستلمي شيئاً، وانا اشعر
بالذنب، واخشى ان تعتقدي لحظة
انني العب دوراً، او انني نسيتك قد
اخذ كفنه في فراغ، او انه صمتك،
او انه اتجه نحو طرفاً آخر: دونك
انتِ الغالية لا شيء ولا احد.. وغيابك
- لكنه من كان الذي سيختاره - لن
يعوض.. بعدك مستحيل. دونك
لا شيء ولكن غيرك غير ممكن.

انت في جلدي، واحسك
مثلما احس فلسطين: ضياعها كارثة
بلا اي بديل، وحبي شيء في صلب
لحمي ودمي، وغيابك دموع تستحيل
معها لعبة الاحتيال.

لقد وقع الامر، ولا فرار.. العذاب
معك له طعم غير طعم العذاب دونك،
ولكنه، دائماً، عذاب طازج، صهوة
تستعصي على الترويض.

انني اكره ما يذكرني بك، لانه
يثير جراحاً اعرف انها لن ترتفع.
انا لا استطيع ان احس مارتقه جراحي
مثلما يرتق الناس قمصانهم... وما اكثر
الاشياء التي تذكرني بك: الشعر الاسود
حين يلوح وراء اي منعطف يمزق
جلدي، النظارات السود ما زالت
ترعبني.. السيارات، الشوارع، الناس،
الاصدقاء الذين تركتِ في عيونهم
صداك، المقاعد، الاكل، الكتب،
الرسائل، المكتب، البيت، الهاتف.
كل ذلك، كله.. هو انت،
وقبله: اذكرك طالما انا انا.. وحين
انظر الى كفي احسك تسيلين في
اعصابي.. وحين تمطر اذكرك، وحين

تعود اسأل : من محدّ ؟ وحين
ارى كأساً اقول : هل تشرب ؟ ثم
ماذا ؟

لقد صرت عدائي ، وكنت عليّ
ان الجأ وحيدة الى المنفى ، هارباً او
مرغماً ، على الفرار من اقرب الاشياء
الى الروح واكثرها حباً تجذراً في صدره :
الوطن والحب .

واذا كان عليّ ان اأمضي من اجل
ان استرد الروح نفوقه لي ، انت
ايتها الجنية التي تحبك ، كل لحظة ،
كوابيسي التي لا تنتهي .. كيف استردك ؟

اقول لك : دون ان اغمض عينيّ
دون ان اتكف : انني انام الى جوارك
كل ليلة ، [illegible] واتحسس لحمك واسمع
هاتفك واسبح في بحر العتمة مع
جسدك وصوتك وروحك وراحتك ،
واقول وانا على عتبة نشيج : يا غادة
يا غادة يا غادة ...

واغمض عينيّ .

وحين افتح ليس ثمة مدى غيرك ،
وحين اقود سيارتي في تعب الليل
وحيداً ، اكتب اليك ساعات من جنون ،
اتشاجر ، اضحك ، اشتم السائقين ،
اسرع ، ثم اتقف ، احتويك واقبلك
وانتشي .

انني على عتبة جنون ولكنني اؤجل
قتل اي انسان آخر ان وجودك فهي
جنون آخر له طعم اللذة ، وبانه
سلاحه الشر ، التي لا يمكن ان تصلح في
قالب اريده انا - جنون تشبهين حافته
الى الموت !

احس رن الهاتف في المنزل ، ورفعت
السماعة .. لم يكن ثمة احد يتكلم على
الطرف الآخر وهمست ، بعد لحظة ،
بصوت جبان : غادة ؟

وهذا كله رسمه .. انت صبية
رقيقة ، رومنسية .. وبسهولة
تستطيعين ان تدرجي اسمي في
قائمة التائهين ، وتدوسي عليه
وانت تتقدمين الى ما تريدين ..
ولكني اقتل .. اني اقتل حتى هذه
اللحظة البغيضة !

ماذا اقول لك ؟ اني اشعر
بمرارة .. بعض الناس الذين
مثلنا يعيشون الى الابد مع الوحشة ،
لا استطيع ان انسى ، ولا استطيع
ان ابعد عني ورائي سخرية
الخيبة التي تركت معها ، يشهد
الله كم هو كبير ، لتعطيني الفرصة
بلا هوادة !

ماذا بعد ؟ ها انت تمشين
[illegible] وانت مع بعد الذي مثل ما
كنت تستطيعين ان تقوليه حين
كنا بعد ... ومع ذلك فانا في
الحب ! كيف ؟ كيف ؟

لا اعرف ماذا اريد . لا اعرف
ماذا اكتب . لا اعرف الا انني ،
ولكن خصوصا .. انا مشوش
الى حد لعين ، ان المفترض بقلمي
في مثل هذه الاجواء الشيطانية
[illegible] ---
فذلك ، مع الاقل ، شيء يقال .

فقط ، تحارب في الهاتف ..
اما انا فليس لدي قرش استطيع ان
اصرفه ، وان اصرفه خصوصا على
عذاب لا احتمله . لقد تقوض هذا
الشيء الذي كنته ، وانا حطام ،
واعرف ان ذلك شيء لا يسر كثيرا ،
ولكنه حدث بعنوان لقصة .

هازم ؟ اجل هازم ، بس

نوع أكثر خصوصية : إني أكثر شجاعة
منه في وجه العدو المحتل ، ولكني
أقل منه شجاعة في وجه الحب .
إني أعطيه على قصة .
فكوني صبورة بالتفكير في أسلوب
الحياة .. وسأكون سعيداً لو
عرفت كيف تكتبين عن رجل
أحبه حقاً ، ولم تخطئ معه ،
وظل يترصده ، ولم يحترق بأي
شيء في سبيله ... دونما تحقيقه
بالمقابل شيئاً " إلا " آذان
الآخرين " والاغتراب والصمت .

لا !
لا تتحدث معي بالهاتف .. اكتبي
لي كثيراً .. إذا أصبت سأكون في
المقربين ، وسأحتفظ في صيغة
ذات يوم سأعطيه له .. إنه
- أيتها الشقية - أجمل ما كتبت
وأكثرها صدقاً ..

كنت قلت لك في رسائلي
السابقة إنهم يريدون لشبابي
الحصول على لندن .. حاولي أن
تفعلي ، واكتبي لا أحد سواك لديه .
أرجوك ، اكتبي لي .

بطاقة بريدية من السودان
١٧ مارس ١٩٦٨

الأخت غادة السمان

مجلة الحوادث

بيروت

لبنان

رغم كل القيظ الذي هنا أردد دائماً: شو هالبرد(١)! لا ينقصني إلا ٣ كيلو(٢) من الوزن أنتظرها كما ينتظر العطشان.. أذكرك، واخترت هذه البطاقة بدقة لأنني أعرف كم تحبين الموسيقى وكم أغتاظ منها... تحياتي لكم جميعاً..

غسان

---

(١) العبارة التي سبق أن كتبتها له في بطاقة بريدية.
(٢) كان يريدني أن أضيف ٣ كيلوغرام إلى وزني خوفاً على صحتي، وحتى اليوم لم أفعل!..



بطاقة بريدية من السودان

Scenes from Sudan
Visages du Sudan
Immagini del Sudan

رغم كل القيظ الذي هنا
اردد دائماً: الخرطوم لبرد!
لا يستغني الا ٣ كيلو متر
انوثة انتظرها كما ينتظر السلحفاة..
ازرك، وانتقت عنه العلاقة
حقيقة لاني اخرف كم تحبني
اخوستي وكم اشتاق منه...
ثيابي كلها تحبها..

S-11

ital graph – genova





الأستاذ ... سفارة ...

... الخوري

بيروت

لبنان

PRINTED IN ITALY

بطاقة من أسوان إلى بيروت(*)

١٤/٢/٦٨

تحيات وأشواق من المؤكـد أنها ستـدفعني للوصـول قبل هـذه البطاقة...

غسان

---

(١) تعذر عمل صورة (فوتوكوبي) عن البطاقة لأنها مكتوبة بحبر أحمر فاتح اللون جداً.

١٩٦٨/٨/٢٥

عزيزتي غادة..

في نفس اليوم الذي تلقيت فيه رسالتك كنت قد أخذت عنوانك من سليم[١] وعزمت على الكتابة لك مطولاً، ولكن حين قرأت اسم كريس[٢] في العنوان انتابني شيء غامض، واكتفيت بأن أكتب لك، على عنواني[٣]

نزلت علي رسالتك كما المطر على أرض أعتصرها اليباس. مثلك لا شيء. مكانك لا يملأ، كلماتك وحدها التي لها صوت يغطس إلى أعماقي. أراك دائماً أمامي، أشتاقك، أعذب نفسي بأن أحاول نسيانك فأغرسك أكثر في تربة صارت كالحقول التي يزرعون فيها الحشيش: لا تقبل زرعاً غيره إلا «عباد الشمس»، وأنا لن أنهي حياتي عباداً للشمس. أقول لك: إنني أشتهيك، ولا أستحي لأنك صرت الشيء الوحيد الذي أخفق له. هل

(١) سليم اللوزي.

(٢) كريستوفر، صديق بريطاني من أصدقائي في لندن، وكنت مشردة تلك الفترة فتكرم بإعارتي عنوانه البريدي.

(٣) هذه الرسالة نشر غسان بعضها في ملحق **الأنوار** الأسبوعي الذي كان يرئس تحريره، وكتب بعضها الآخر بخط يده على هامش الجزء المنشور كما يرى القارىء في (الفوتوكوبي). وفي تونس، كتب الأستاذ عبد الرحمن مجيد الربيعي في جريدة **الصدى** بتاريخ ٢٣/٩/١٩٩٠ يقول: «أحب أن أذكر أن المرحوم غسان كنفاني عمل في أواخر الستينات رئيساً لتحرير الملحق الأسبوعي لجريدة **الأنوار** اللبنانية وكان يكتب صفحة أسبوعية فيها. صفحة لا يحلل الوضع السياسي العربي أو العالمي بل يكتب عن خفق قلبه ونبض وجدانه وكل أصدقائه كانوا يعرفون أن تلك الصفحات كانت لغادة وعنها، فلماذا لا تنشر في كتاب أيضاً سيما وأن هناك لجنة مهتمة بنشر تراثه كاملاً؟ كما كان غسان يكتب زاوية لنقد الكتب الجديدة ويوقعها باسم فارس فارس، هذه الكتابات لم تر النور كذلك ويجب أن يحصل لها ذلك».

سأراك حين تعودين؟ أم تفضلين الكفر بتلك الساعات التي جبلت في لحمنا حتى القرار؟

مأساتي (ومأساتك) انني أحبك بصورة أكبر من أن أخفيها وأعمق من أن تطمريها. أتراك في نفس المكان؟ إذن يا للمأساة التي لن تنتهي! أقول لك: تعالي، ودعينا نهدم الجدران جميعاً، إن حياتنا أصغر من أن نهدرها في الشطارة. أعترف!

... **وهأنذا مَتروك هنا، كشيء!**

كيف تركتك تذهبين؟

كيف لم تطبق كفاي عليك مثلما يطبق شراع في بحر التيه على حفنة ريح؟

كيف لم أذوبك في حبري؟ كيف لم أجعل من لهاثينا معاً زورقنا الواحد إلى نبض الحياة الحقيقي؟

كيف ذهبت دون أن أحس بك؟ كيف مرت عيناك في عمري دون أن تتركا على وجهي بصماتهما؟ كيف لم أتمسك بك؟ كيف تركتك - يا هوائي وخبزي ونهاري الضحوك - تمضين؟

أيتها المرأة الطليقة، يا من قبلك لم أكن وبعدك لست إلا العبث، من بحر عينيك سقيت ضياعي جرعة الماء التي كانت دائماً سراباً، وفوق راحتيك تعرفت إلى مرساتي ووسادتي وليلي.

يا طليقة! أيتها المرأة التي مثلك لا يرى، أيها الشعر الذي رف تحت جفني مثل جناحي عصفور ولد في رحم الريح، أيتها العينان اللتان تمطران خبز القلب وملح السهوب الجديبة، يا طليقة: كيف انخلعت هكذا عني؟ كيف شلت مرساتك من عشبي وتركت بحري؟ بعدكِ ليس إلا الخواء، دونك لست إلا قطرة مطر ضائعة في سيل.

عشت معك حقيقة عمري. ضعت فيك إلى حد لم أصدق أنه قد تمضين، كان ذلك مثل المستحيل، ولكنك - ذات صباح - غبت، كما لو أن شروقك في جبيني لم يكن!

وورقة على حافة الفجيعة:

«غادرت لتوك، وما زلت أحسك بين ذراعي. راقبت المصعد يهبط، الضوء ينطفيء، خطواتك تختفي. وغداً سأراك لأودعك، ولكن ذلك سيكون مرعباً، إلا إذا تصرفنا بحذاقة غير إنسانية... هل أقول لك: إلى اللقاء؟ إنها كلمة ليست شخصية بصورة كافية، تبدو وكأن شخصاً ما قد استعملها قبل لحظة وتركها مرمية هناك. الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقوله..»

أيتها الطليقة...

ذلك كله عبث. الكلمات كلها علكت من قبل أناس آخرين، ولكن وقع يدكِ على جبيني كان دائماً ولادة لشيء رائع ومتوهج، مثل ومضة لهب، كان دائماً شيئاً خاصاً وشخصياً ولا يعوض.

الكلمات عبث، أيتها السحابة التي أمطرت على جفافي موسماً من الخصب، ولكن في عينيك كانت توجد دائماً الكلمة الجديدة البكر التي لم تصدأ من كثرة ما تناقلتها الشفاه. كانت تولد في قبضة الصمت نبضاً عبقرياً يلتمع بالدهشة.

الكلمات عبث، وأنت كنت دائماً لغتي التي لا يفهمها أحد، وراء التعويذات التي اخترعها أجدادنا وسموها حروفاً وأصواتاً، لقد كان شعركِ مطري، وراحتك وسادتي، وذراعك جسري، وعيناك بحري، وشفتاك كأسي. كان انتظارك عمري، وحضورك ولادتي وغيابك ضياعي.. وها أنت تذهبين مثلما تعبر ريح الصباح شباكاً مهجوراً: تحييه لحظة، ثم تعيده إلى الغيب...

كيف تركتك تذهبين؟ ما الذي سأفعله بعدك؟ أي أرض ستخصب بعدك؟ وأي شباك سيدخل إلى جفافي ويباسي ريح الصبح؟

سأعلك الندم عمري. ندمك وندمي. لقد نسفنا بأيدينا الشجرة الوحيدة التي صادفناها في رحلة عمرينا، ولم يبق أمامنا إلا أن نكمل الشوط في قيظ الوحدة التي لا ترحم. أنت وأنا اعتقدنا أن في العمر متسعاً

لسعادة أخرى، ولكننا مخطئون، المرأة توجد مرة واحدة في عمر الرجل، وكذلك الرجل في عمر المرأة، وعدا ذلك ليس إلا محاولات التعويض، بذل النسيان والندم راقة فوق راقة.

إن أسعدنا هو أبرعنا في التزوير، أكثرنا قدرة على الغوص في بحر الأقنعة. ننسى؟ ذلك مستحيل، وأنا - أيضاً - لا أريد أن أنسى. ليس بوسعي أن أطمر الزهرة الوحيدة في عمري هكذا، لمجرد أنك ذهبت، وأن أملي في أن ألقاك هو مثل أملي في أن ألقى طفولتي.

فيا أيتها الطليقة التي حملها جناحاها إلى أرض لا أعرفها، والتي كان علي منذ البدء أن أعرف بأنها، مثل العصافير، ستضرب في فراغ السماء وجاذبية المدى الذي لا يحده حد، لست أطمع منك بالعودة. لقد رف جناحاك في زنزانتي وتركا في هوائها الساكن شيئاً يشبه خفق القلب، زرعا في صمتها خفقة طليقة وتركاها تغطس في وحدتها المرة.

لست أطمع منك بالعودة، فالعصافير لا تسكن أعشاشها مرتين، وحين نفضت عن ريشك كسل القرار عرفت أنا أنك لن تعودي..

ولكن كيف تركتك تذهبين؟ كيف لم أربط نفسي إليك مثلما ربط السندباد نفسه إلى ريش الرخ؟

ليس عندي، أيتها الطليقة، يا خبزي ومائي وهوائي، إلا الندم، وبعيداً في قراره توجد بذرة للشجرة القادمة.

بلى.

سأراك مرة أخرى، ذات يوم. ترانا - يومذاك - سنكسر من حول جلودنا يراقات النسيان التي سنبنيها فوق اللحظات النادرة في حياتنا، كي لا نظل صرعى الخذلان؟

إن العمر خديعة، يا طليقة، وإلا كيف يمكن أن يكون عمري معك عمراً وعمري دونك عمراً أيضاً، وكيف يمكن - بعد هذين العمرين - أن أراك مرة أخرى وتكونين أنت وأكون أنا؟ لماذا لا؟

ماذا أقول لك؟ إن النسيان هو أحسن دواء اخترعه البشر في

رحلتهم المريرة، ومع ذلك فأنا لن أنســاك. أنت تخفقين في رأسي مثــل جناحي عصفور طليق، أمام بصري يَنتثر ريش الطائر الذي حط وطار، مثل لمح البصر...

وها أنذا، متروك هنا كشيء، على رصيف انتظار طويل، يخفق في بدني توق لأراك، وندم لأنني تركتك تذهبين. أشرع كفّي اللتين لم تعرفا، منذ تركت، غير الظمأ.

وأقول: تعالي..

غسان كنفاني

عزيزتي غادة ..

في نفس اليوم الذي تلقيت فيه رسالتك من [illegible] وغيرت [illegible] العنوان !

كنت قد اخذت عنوانك من سليم وأرسلت [illegible] مع عنوانك الباريسي .

الكتابة لك مطولة ، ولم [illegible] من الشبابيك الى ارض اعتصرها صوت يغطيه

انتابني شيء غامض ، والتفت لي [illegible] المطر مع الارض التي لطخ [illegible] اماوه

نزلت علي رسالتك ، كلماتك ومدها ، اعذب التي نفسي [illegible] من فيه

مثل لا شيء . مكانك لا يملؤه ، استدفئ كالعدول [illegible] لاني صرت الشيء

الاعجازي . انك دائما امامي ، [illegible] ولا استحي انك حبيبة تعودين

سيدتي فانوس الكثر [illegible] الشمس [illegible] من السماء التي

الشيء : لا تقبلي [illegible] اقول لك : انني عابد [illegible] الكفن تلك الساعات ؟

صادق عباراتك غيره الوحيد الذي افقده [illegible] متى القرار ؟

ام تفضلين مبيت في [illegible]

... وهانذا متروك هنا ، كشيء !

فاسالي (ولماسيتك) انني احببتك بصورة اكبر من ان افقدك

واحبك من ان تطرحي . اتراك في نفس المكان ؟ ازمن يا سيدة

التي لم تنتهي ! اقول لك : تعالي ، ودعينا نهدم الجدران جميعا

ان حياتنا اصغر من ان نهدرها في الانتظار . اعترف !

كيف تركتك تذهبين ؟
كيف لم تطبق كفاي عليك مثلما يطبق شراع في بحر التيه على حفنة ريح ؟
كيف لم اذوبك في حبري ؟ كيف لم اجعل من لهاثينا معا زورقنا الواحد الى نبض الحياة الحقيقي ؟
كيف ذهبت دون ان احس بك ؟ كيف مرت عيناك في عمري دون ان تتركا على وجهي بصماتهما ؟ كيف لم اتمسك بك؟كيف

مثل ومضة لهب ، كان دائما شيئا خاصا وشخصيا ولا يعوض .

الكلمات عبث ، ايتها السحابة التي امطرت على جفافي موسما من الخصب ، ولكن في عينيك كانت توجد دائما الكلمة الجديدة البكر التي لم تصدأ من كثرة ما تناقلتها الشفاه . كانت تولد في قبضة الصمت نبضا عبقريا يلتمع بالدهشة .

القي طفولتي .

فيا ايتها الطليقة التي حملها جناحاها الى ارض لا اعرفها ، والتي كان علي منذ البدء ان اعرف بانها ، مثل العصافير ، ستضرب في فراغ السماء وجاذبية المدى الذي لا يحدمحد ، لست اطمع منكبالعودة. لقد رف جناحاك في زنزانتي وتركا في هوائها الساكن شيئا يشبه خفق القلب ، زرعا في

تركتك — يا هوائي وخبـــزي ونهاري الضحوك — تمضين ؟

ايتها المراة الطليقة ، يا من قبلك لــم اكن وبعدك لست الا العبث ، من بحــر عينيك سقيت ضياعي جرعة الماء التي كانت دائما سرابا ، وفوق راحتيك تعرفت الــى مرساتي ووسادتي وليلي .

يا طليقة ، ايتها المراة التي مثلك لا يرى ، ايها الشعر الذي رف تحت جفني مثل جناحي عصفور ولد في رحم الريح ، ايتها العينـان اللتان تمطران خبز القلب وملح السهـوب الجديبة ، يا طليقة : كيف انخلعت هكـذا عني ؟ كيف شلت مرساتك من عشبي وتركت بحري ؟ بعدك ليس الا الخواء ، دونك لست الا قطرة مطر ضائعة في سيل .

عشت معك حقيقة عمري . ضعت فيك الى حد لم اصدق انه قد تمضين ، كــان ذلك مثل المستحيل ، ولكنك — ذات صباح — غبت ، كما لو ان شروقك في جبيني لم يكن ! وورقة على حافة القجيعة :

((غادرت لتوك ، وما زلت احسك بـين ذراعي . راقبت المصعد يهبط ، الضــوء ينطفىء ، خطواتك تختفي . وغدا ســاراك لاودعك ، ولكن ذلك سيكون مرعبا ، الا اذا تصرفنا بحذاقة غير انسانية ... هل اقول لك : الى اللقاء ؟ انها كلمة ليست شخصية بصورة كافية ، تبدو وكان شخصا ما قــد استعملها قبل لحظة وتركها مرمية هناك . الشيء الوحيد الذي استطيع ان اقوله ..))

ايتها الطليقة ...

ذلك كله عبث . الكلمات كلها علكت من قبل اناس آخرين ، ولكن وقع يدك علــى جبيني كان دائما ولادة لشيء رائع ومتوهج ،

الكلمات عبث ، وانت كنت دائما لغــى التي لا يفهمها احد ، وراء التعويذات التــي اخترعها اجدادنا وسموها حروفا واصواتا ، لقد كان شعرك مطري ، وراحتك وسادتي ، وذراعك جسري ، وعيناك بحري ، وشفتاك كاسي . كان انتظارك عمري ، وحضورك ولادتي وغيابك ضياعي .. وها انــت تذهبين مثلما تعبر ريح الصباح شباكــا مهجورا : تحييه لحظة ، ثم تعيده الــى الغيــب ...

كيف تركتك تذهبين ؟ ما الذي سافعلــه بعدك ؟ اي ارض ستخصب بعــدك ؟ واي شباك سيدخل الى جفافي ويباسي ريــح الصبــح ؟

ساعلك الندم عمري . ندمك وندمي . لقد نسفنا بايدينا الشجرة الوحيدة التــي صادفناها في رحلة عمرينا ، ولم يبق امامنا الا ان نكمل الشوط في قيظ الوحدة التــي لا ترحم . انت وانا اعتقدنا ان في العمـر متسعا لسعادة اخرى ، ولكننا مخطئون ، المراة توجد مرة واحدة في عمر الرجــل ، وكذلك الرجل في عمر المراة ، وعدا ذلـك ليس الا محاولات التعويض ، بذل النسيان والندم راقة فوق راقة .

ان اسعدنا هو ابرعنا في التزوير ، اكثرنا قدرة على الغوص في بحر الاقنعة . ننسى ؟ ذلك مستحيل ، وانا — ايضا — لا اريـد ان انسى . ليس بوسعي ان اطمر الزهرة الوحيدة في عمري هكذا ، لمجرد انك ذهبت ، وان املي في ان القاك هو مثل املــي في ان

وخدها امراة .

لست اطمع منك بالعودة ، فالعصافــر لا تسكن اعشاشها مرتين ، وحين نفضت عن ريشك كسل القرار عرفت انا انك لــن تعودي ..

ولكن كيف تركتك تذهبين ؟ كيف لم اربط نفسي اليك مثلما ربط السندباد نفسه الى ريش الرخ ؟

ليس عندي ، ايتها الطليقة ، يا خبـزي ومائي وهوائي ، الا الندم ، وبعيدا في قراره توجد بذرة للشجرة القادمة .

بلــى .

ساراك مرة اخرى ، ذات يوم . ترانــا — يومذاك — سنكسر من حول جلودنــا راقات النسيان التي سنبنيها فوق اللحظات النادرة في حياتنا ، كي لا نظل صرعــى الخذلان ؟

ان العمر خديعة ، يا طليقة ، والا كيـف يمكن ان يكون عمري معك عمرا وعمـري دونك عمرا ايضا ، وكيف يمكن — بعــد هذين العمرين — ان اراك مرة اخـرى وتكونين انت واكون انا ؟

ماذا اقول لك ؟ ان النسيان هو احسن دواء اخترعه البشر في رحلتهم المريرة ، ومع ذلك فانا لن انساك . انت تخفقين في راسي مثل جناحي عصفور طليق ، امام بصـري ينتثر ريش الطائر الذي حط وطار ، مثـل لمح البصر ...

وها انذا ، متروك هنا كشيء ، علــى رصيف انتظار طويل ، يخفق في بدني توق لاراك ، وندم لانني تركتك تذهبين . اشرع كفي اللتين لم تعرفا ، منذ تركت ، غير الظما .

واقول : تعالي .. ■

رئيس التحرير: غسان كنفاني
سكرتير التحرير: روبير غانم
التصميم العام: درويش عبد الرحيم

صباح يوم ٢٨/١٢/١٩٦٦ أيقظني قرع على الباب. كان غسان واقفاً منهكاً وغاضباً، وناولني هذه الرسالة قائلاً: إنها لك. كتبتها لك، ولكنني خاطبت أختي فايزة فيها لغضبي منك. وتركها بين يدي ومضى.. وكانت رسالة بدأ كتابتها في الليلة السابقة، ليل ٢٧/١٢/١٩٦٦ وختمها برسالة أخرى بعد طلوع فجر ٢٨/١٢/١٩٦٦.

صعقني ما ورد فيها فقد كنت ليلتها بحاجة إلى أن أخلو إلى نفسي بعد سهرة مع بعض الأصدقاء ولم يخطر ببالي أن ذلك سيزلزل غسان إلى هذا المدى.. أم تراه خطر ببالي وتعمدته في اللاوعي؟ أم تراني كنت أريده حقاً أن يقضي سهرته مع أسرته ولذا اقترحت عليه الذهاب مبكراً إلى هناك ووعدته بأن أهتف له لأضمن ذهابه مما أثار شكوكه؟ هل تعمدت إثارة شكه؟ ما زلت حتى اليوم لا أدري، ولكنني أذكر جيداً أنني كنت دائماً حريصة على كيانه العائلي بقدر حرصي على استقلالية كياني.

بيروت ٢٧/١٢/١٩٦٦

عزيزتي فائزة..

إنني أغيب عنك سنوات ولكنني أعود، أنبع فجأة، وأنت تقولين لنفسك: ها هو الطفل يعود. كنتِ فيما سبق تغضبين وتحزنين وتقولين إنك تفتقدينني ولكنك استسلمت أخيراً لذلك الطفل الغريب الأطوار دائماً، المغلوب على أمره دائماً، الباحث عن ملجأ دائماً.. تستطيعين الآن، بعد ثلاثين سنة، أن تطمئني لشيء واحد هو أنني سأظل أعود، فقد كتب علي كما يبدو أن أظل مهزوماً في أعماقي، إن الشيء الذي انكسر فيّ حين كنت في العاشرة لن يلتئم، وقد ظللت دائماً أوفى الناس لشيء اسمه التعاسة وسوء الحظ. وهأنذا أعود مرة أخرى لك، ربما لأنك بعيدة عني ولأنك الجزيرة التي لم تعد لي ولأنك لا تستطيعين أن تأخذيني معك وفيك ولك..

ما الذي حدث خلال السنين الطويلة الماضية؟ ما الذي حدث، بالضبط، منذ اقتحمت عليك غرفة العمليات؟ هل تذكرين؟ يوم رفعت المشرط في وجه المسكين ولسون، ذلك الاسكتلندي الطيب الذي كان يجد فيّ ما لم أجده أنا نفسي، إنه يضحك بلا شك حين يذكر القصة. كنت أنا على حق رغم كل شيء، وقلت له: ليمت الطفل، ولكن إذا ماتت هي فستموت معها هنا. ورفضت أن أخرج وظللت مثل مجنون فار مثبتاً ظهري إلى الزاوية وأنظر إليك مضرجة بالدم تحت أصابعه الباردة وحين تنفس الصعداء بعد قرن من الرعب أخذت أبكي، وسقط المشرط من يدي... ولم أرك إلا بعد أن صار أسامة في الرابعة من عمره..

لماذا أذكّرك الآن بهذا الشيء الذي مضى؟ ربما لأنني أشعر كم كنت على حق.. إن الإنسان ليس إلا مخترع ملاجىء، هكذا كان وهكذا

هو وهكذا سيظل، وكل ما عدا ذلك هراء في هراء، وأقول الآن: كنتُ أحس ملجأي عميقاً داخل تلك الغريزة التي كنت تسمينها، حين كنتُ طفلاً، النبوة، وكنت أحس كم كان فقدانه هولاً تساوت فيه إرادة العيش بشفرة المشرط. إنني لا أنسى حدقتي الدكتور ولسون حين كانت تسبح فيهما تلك الكرتان الزرقاوان، كان رجلاً قادراً على الفهم من فرط ما شاهد الناس يموتون ببساطة ويتركون وراءهم العالم بملاجىء أقل، وكان يعرف أنكِ ملجأي.

وهأنذا أعود يا فائزة مثلما كنت أعود إليك طفلاً شقياً مبللاً بمطر يافا الغزير وتستطيعين بنفس الصوت القديم أن تقولي لي: «كنت تسير تحت المزاريب، أنا أعرف كم تبلغ بك الشقاوة..» تحت المزاريب يا فائزة تحت المزاريب.. إنني أعطيك رأسي بعد أكثر من عشرين سنة لتجففيه مرة أخرى رغم أنني أحسه مبتلاً من الداخل، أعطيك رأسي، أنا الشقي المسكين، فلم يتبق ثمة شيء إلا يديك.. وبالضبط لأنهما على بعد ألف ميل.

ما الذي حدث منذ ولد أسامة عبر ذلك المخاض الصعب الرهيب؟ بالنسبة لي ما تزال دفتا الباب الأبيض تروحان وتجيئان متقاطعتين منذ خرجت منهما.. هل تغير أيما شيء؟ ما الذي حدث؟ أي جنون يملأ هذا العالم؟ هل رأيت الدكتور ولسون مرة أخرى وتحدثتما عن جنوني؟ هل يعرفني أسامة؟ هل يسمع عني بين الفينة والأخرى؟ أما أنا فقد حدث لي ذلك الشيء الذي قلت لي مرة أنه وحده سيحطمني ذات يوم: الحب.

لو كنت هنا، وجلست معنا كما كنت تفعلين منذ زمن، لنظرت إلي في لحظة مسترقة وهززت رأسك موافقة. لقد عشت عمري أنتظر أن أرى من رأسك تلك الحركة . حين جلسنا مع جاكلين في بحمدون قبل سبع سنوات انتهزتِ أول فرصة ورفعتِ أمام عيني حاجبيك كأنك تقولين «لا، ليست هي» وراحت جاكلين، وراحت مُنى، وراحت كوكب(١) عبر حاجبيك

(١) أتمنى على جاكلين ومنى وكوكب عدم تمزيق رسائل غسان إن كتب لهن ذات يوم لأن تلك =

اللذين كانا دائماً يقولان «لا».. وجاءت هي. قولي لي إنها هي.

أخيراً هذا هو الشيء الذي كنت تنتظرينه يا فائزة وراء ظلا
دون أن أعرف.. هذا هو الشيء الذي وحده يستطيع أن يحطمني
كنتِ صادقة وكم كنتُ غبياً.. أتتذكرين يوم جئت إليك أقول إن حي
سافرت؟ قلت لي على مائدة الفطور: إن شراستك كلها إنما هي لإخفاء
هش، لا حدود لهشاشته، ذات يوم ستصل أصابع امرأة ما
وستطحنه.. وإذ تجيء يومها إليّ سأفهمك وحدي!

هأنذا أجيء فكافئيني بأن تفهميني، ليس بوسعك أن تنصا
أحداً، إنني أتمزق وليس بوسعك أن تجدي، بعد، أذناً واحدة في
الجسد الذي كان كله آذان، إننا نجيء دائماً متأخرين. متأخ
متأخرين. أفهمتِ كل شيء الآن يا فائزة؟ متأخرين.

أقف الآن على هذا المرتفع في حياتي وأنظر إليها قاحلة
بالشوك والتوحد وتمتد في برودة الماضي وبرودة المستقبل دونما نه
ويبدو أنني أحاول أن أستبدل الوطن بالمرأة، أعرفت في عمرك كله
أبشع من هذه الصفقة وأكثر منها استحالة؟ ولكن هذا ما يحـ
وأستطيع أن أكشفه بوضوح الآن كأن كل ما حدث لم يكن إلا اقـ
أعمى إلى هذه النهاية. لقد حاولت منذ البدء أن أستبدل الوطن بالـ
ثم بالعائلة، ثم بالكلمة، ثم بالعنف، ثم بالمرأة، وكان دائماً يعو
الانتساب الحقيقي، ذلك الانتساب الذي يهتف بنا حين نصحـ
الصباح: «لك شيء في هذا العالم فقم» أعرفته؟ وكان الاحتيال يتها
فقد كنت أريد أرضاً ثابتة أقف فوقها، ونحن نستطيع أن نخدع كل
ما عدا أقدامنا، إننا لا نستطيع أن نقنعها بالوقوف على رقائق جليد
معلقة بالهواء، والآن: كنت أمشي على رقع الجليد تلك، وليس كل ما
وكل ما قلته في حياتي كلها إلا صوت تهشمها تحت الخطوات الطري

مرة أخرى، ما الذي حدث؟ تزوجت فجأة، أنت لا تعرفين

= السطور لم تعد رسائل شخصية تخص تاريخهن بل تخص تاريخ الأدب.

بالطبع وقد فجأك الخبر مثلما فجأ والدي، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً، لم يكن يستطيع أن يحرمني من ثروته بعد أن حرم منها رغم أنفه، ولم يكن يستطيع أن يمنعني من ولوج بيته بعد أن امتنعت من تلقاء نفسي ولم يكن ليستطيع استنزال غضب السماء علي فلدي من غضبها ما يفيض عن حاجة رجل واحد.. ولم يكن هو أيضاً يعرف لماذا وكيف، ولكنني كنت أعرف، كنت أمارس تلك الفضيلة البشرية الوحيدة: كنت أخترع ملجأ.

لقد جاءت آني حين كنت قد شرعت، مختاراً ومرغماً، في الانزلاق على هضبة الوحل المغرية والجذابة، وفي ذات الصباح الذي قررت في مسائه أن أتزوجها كنت على وشك الاتفاق مع امرأة نصف ثرية نصف جميلة ونصف تحبني ونصف شابة على أن نعيش معاً. كانت تلك المرأة نصف الطريق إلى السقوط وأردت أن أجعلها محطتي كي أقبل الرحلة كلها فيما بعد إلى قرار القاع السحيق والمنسيّ. وجاءت آني ذلك اليوم مثلما تجيء رسالة البشرى من مكان قصيّ مجهول فجعلتها ملجأي للفرار في واحدة من ومضات النبوّة التي تبرق في ضمير كل إنسان على ظهر هذه الأرض. أقول لك الآن: كانت فراراً.

كانت يا فائزة بعيدة عني في كل شيء. واحتجت إلى خمس سنوات كبيرة أظل مشغولاً خلالها في ردم الهوة المفتوحة بيننا، وارتكبت مرة أخرى خطأ الاحتيال: فحين عجزت عن ردمها كما ينبغي ردمتها بطفلين.

ولكنني رغم كل شيء ظللت مخلصاً للقيم التي احترمها والتي أورثني إياها إقطاع جدي المؤمن بالفضائل حين خسر أراضيه ولكنه أصر على كسب أخلاقه، وكنت أعرف في أعماقي أن الشراع المطوي في أعماقي سيمتلىء برياح الغربة من جديد ولكنني ظللت صامداً، وبقسوة السكين تخليت عن حياتي السابقة في سبيلها، كانت وما تزال امرأة رائعة، ربما الشيء الوحيد في هذا الكون الذي أستطيع برضى لا حدود له، أن أقدم لها حياتي إذا ما تعرضت لخطر الغياب.

أقول لك ذلك الآن رغم أنك سألتني ذات يوم وكنا وحدنا: هل أنت سعيد معها؟ فقلت لك حاسماً وصادقاً: لا. إن الحب شيء وعلاقتي بها شيء آخر، وهي تعرف.

ثم جاءت غادة.

جاءت؟ لا، إن الكلمة الأصح هي: عادت. لقد كانت موجودة دائماً في أعماقي. أنا لا أتحدث عن الفترة التي كنت أراها فيها عابرة في ممرات الجامعة قبل عشر سنوات، لا. إنني أتحدث عن وجود أكثر تعقيداً من ذلك وأكثر عمقاً. ماذا أقول لك وكيف أشرح لك الأمور؟ دعيني أقول لك كيف: أمس كنت أذوِّب شمعة فوق زجاجة، أتلهى بهذه اللعبة التي يكوّن فيها الإنسان شيئاً فوضوياً وغامضاً من زجاجة وقضيب شمع، وكان ذوب الشمع قد كسى جسد الزجاجة بأكمله تقريباً، وفجأة سقطت نقطة من الشمع الذائب دون إرادة مني وتدحرجت بجنون فوق تلال الشمع المتجمد على سطح الزجاجة واستقرت في ثغرة لم أكن قد لاحظتها من قبل وتجمدت هناك فجعلت ثوب الشمع بأكمله يتماسك من تلقائه.

هذا ما حدث، ولست أجد أي وصف آخر له. ومنذ قابلتها أول مرة[1] عرفت في أعماقي كل الذي سيحدث، على الأقل من جهتي. ورغم ذلك فقد كنت مثل الذي يدخل إلى حقل من الرمال المتحركة لا يعرف فيما إذا كان عليه أن يعود أو أن يقطع الطريق إلى الأمام.

عمري الآن سبعة شهور، ولن تصدقي كم تغـيّرت. أنا نفسي لم أصدق ولا أصدق، ويبدو أن هناك رجال لا يمكن قتلهم إلا من الداخل.

لقد عذبها الكثيرون في حياتها وهي وحيدة ولا تستطيع أن تردم الهوة بينها وبين العالم إلا بالرجال، (في الواقع لا أؤمن بهذا. وقد قاله لي هاتف مجهول قبل أسبوع) ألم أردمها أنا بطفلين!

---

(١) التقينا للمرة الأولى في جامعة دمشق أمام باب قاعة الامتحان الشفهي ولم أكن قد سمعت به أديباً يومئذ. بعد أيام الجامعة لم نلتق فترة أربعة أعوام حتى التقينا مصادفة في جريدة **المحرر** ببيروت، وكان غسان مصراً على إلغاء تلك الأعوام من حياتي وحياته!.

لنحاول كرة أخرى: إنها تحبني وتخشى إذا ما اندفعت نحوي أن أتركها مثلما يحدث في جميع العلاقات السخيفة بين الناس، وتخشى إذا ما ذهبت في علاقتنا إلى مداها الطبيعي أن نخسر بعضنا. ولكن يا فائزة هذا كلام كتب وأطباء ومدرسي حساب وليس عواطف امرأة أمام رجل يحبها وتحبه..

لنحاول مرة ثالثة: إنها تحبني إلى حد لا تـريد فيـه أن تقوّض حياتي. ولكن من الذي قال لها أن هروبها لن يفعل؟

يا فائزة. إنني أثق بذكائها، ربما أكثر مما ينبغي. وأفسر كلامها مثلما يفعل الباحث في المختبر. يخيل لي أحياناً أنها أمام الناس تحاول إذلالي. إن ذلك لا يغضبني (نعم فقد وصلت إلى هذا الحد!) ولكن لماذا؟ ما الذي يدفع إنساناً ما إلى تمزيق إنسان آخر يحبه بهذه القوة؟ أمس قالت لي أمام صديق: إن أي رجل في هذا العالم لن يدخل بيتي إلا هو، لأنه أخ (وكانت تتحدث عن صديقي) لماذا؟ ما هو ذلك الشيء الرهيب الذي يدفع امرأة بأن تقول هذا الكلام للرجل الذي تحبه أمام صديقه؟

لست أدري يا فائزة. ولكنني ليل نهار، لحظة وراء الأخرى، أفكر في ذلك كله وأعيش وأتعذب فيه ومن أجله.. أحياناً أنظر إلى عينيها وأقول لنفسي: ينبغي أن تكره هذه المرأة التي يروق لها إذلالك على هذه الصورة، ولكنني لا أستطيع. كنت فيما سبق أستطيع أن أصل إلى قرار في لحظة حين أقول هذا الكلام لنفسي.. أما الآن فأنتِ لن تدركين تعاستي!

إن الدنيا عجيبـة، وكذلـك الأقدار. إن يـداً وحشية قـد خلطت الأشياء في السماء خلطاً رهيباً فجعلت نهايات الأمور بداياتها والبدايات نهايات.. ولكن قولي لي: ماذا يستحق أن نخسره في هذه الحياة العابرة؟ تدركين ما أعني. إننا في نهاية المطاف سنموت.

وأنا لم أكتب لك ذلك كله لأطلب نصيحة، أستطيع الآن أن ألقي محاضرة حول هذا الموضوع.. ولست أدعي أنني أعرف كيف ستنتهي الأمور، ولكنني ذات يوم سأكون قادراً على أن أقول لنفسي وأنا أودعها

أمام باب بيتها دون أن تتيح لي لحظة الاقتراب منها: «لقد ماتت». وعندها سأبكي، وقد ارتكب حماقة، وقد أنكسر لشهر أو شهرين، وسيظل قلبي يقرع كلما أقرأ عنها أو أراها أو أسمع أخبارها مثلما يقرع قلب المرء حين يصادف شبحاً، وأقول لك ما هو أبشع: قد أنزلق وأتحطم ولكنني أبداً أبداً لن أقبل أن أكون صديقاً لها، أرى بعينيّ المكسورتين رجلاً يثبت أنه يحبها وتحبه. فلن أتحمل هذا الهراء. إنني.. كما قلت لك مرة ـ أفضل الموت عن الأسر. إن أحداً لا يستطيع أن يحبها كما فعلت، وعلى الأقل من أجل الحقيقة فسأرفض دائماً أن أقبل الزيف.

... الأيام تدور أيتها العزيزة، تدور وتدور مثلما تدور رأسي الآن، وتحت غبارها التافه يأمل الإنسان أن ينسى. أتذكرين يوم روى لنا والدي المسكين كيف حشا جرح صديقه بغبار العنكبوت جمعه من ثقوب سور عكا؟ قال لنا يومها ان الغبار أوقف النزيف.. يا لله كم كان يقرأ الغيب!

ربما تسمعين ذات يوم أنني كففت عن حبها، أقول لك الآن: لا تصدقي. إنني أحبها بطريقة لا يمكن أن تذوي، كتبت لها ما لم أكتبه في حياتي ومعها ومن أجلها تحدّيت العالم والناس ونفسي وتفوقت عليهم جميعاً. إن حباً من هذا المستوى لا تقبله المرأة ولكنه مع الأسف يستطيع رجل ما أن يحمله وهو يعرف هذه الحقيقة. لا فرار ولا ملجأ هذه المرة فلنأمل بمفعول الغبار.

أنت تسألين: ما الذي تريده إذن؟ وأنا لا أعرف. أعرف فقط أنني أريدها. أنا لا أستطيع أن أفهم كيف ترفض المرأة رجلاً تحبه. إن علاقتهما، إلى أبعد مدى، تضحي حاجة، وإذا كنت أنا قادراً على اتخاذ قرار رهيب من النوع الذي اتخذته منذ شهرين فكيف تريدين أن أفسر الأمور؟ صحيح أن الجنس ليس أولاً ولكنه موجود.. أوه يا عزيزتي! ليس من السهل بالنسبة لي أن أبني معها علاقة جنسية حتى لو أتيحت لي الفرصة لذلك، أذكر ....(١)

---

(١) هذا السطر المشطوب ألغاه غسان بنفسه، وكانت الرسالة هكذا عندما استلمتها، =

إذن مـاذا أريد؟ لا أعـرف أيتهـا العـزيـزة لا أعـرف .. إن الحيـاة معقدة أكثر مما ينبغي لأناس سيعيشون أربعين سنة على الأكثر، والذي أشعره الآن أننا نضيع حياتنا هباء... إن رجولتي لم تذل في حياتها مثلما تذل في كل ليلة أقول لها فيها: نوماً هانئاً... ثم أدير ظهري وأمضي كأنني قطعة خشب لا يسكنها عصب، وينزف جرح تلك الرجولة المهدورة حين أسمع وراء ظهري اصطفاق الباب: إن الأمر لا يعنيها.

ماذا أفعل؟ حاولي أن تقولي لي رغم أنني لن أطيع، ولكن عسى ذلك يساعد في الوصول إلى شيء.. إننا تافهون حين يضحي القرار متعلقاً بنا. أحياناً أفكر في الالتحاق بالفدائيين عسى أن أموت شريفـاً على الأقـل، أحياناً أفكر بالسفر إلى مكان مجهول: أبدل إسمي وأعمل وأعيش إلى أن أموت بهدوء مجهول.. أحياناً أفكر في اقتحام بيتها والبقاء فيه.. ولكن ذلك كله ـ أسألك ـ ماذا يجدي؟ أتحسبين أنني أفتش عن فرار من نفسي؟ لا. منها؟ لا. إذن ماذا أريد؟ إنني أُريدها. ولكن كيف؟ كيف؟ أين هي البلاطة السحرية في هذا الكون التي نستطيع أن نضع أقدامنا فوقها معاً؟

إن الشيء الوحيد الذي أردته في حياتي لا أستطيع الحصول عليه. لقد تبيَّن لي أن حياتي جميعها كانت سلسلة من الرفض ولذلك استطعت أن أعيش. لقـد رفضت المدرسـة، ورفضت العائلـة. ورفضت الثروة، ورفضت الخضوع، ورفضت القبول بالأشياء، ولكنني أبداً لم أرد شيئاً محدداً، وحين أريدها تفر من أصابعي (وأصابع القدر والأشياء والعالم، أنا أفهم ذلك) مثلما يفر الماء من الغربال!

إنني أفكر بالنسبة لها كما يلي: معركتنا خاسرة، إذن فلنعمل على ربحها إلى أن تجيء اللحظة. الزمن ضدنا فلنستعمله طالما هـو معنا. اللقاء مستحيل فلنتلاق حين يكون ذلك ممكناً. سنخسر كل شيء فلنربح الزمن كي لا نندم. البكاء قادم.

═ وحاولت كثيراً قراءته وفشلت!.

أنا أعرف أنها تحبني، لا ليس كما أحبها، ولكنها تحبني. إنها تردد دائماً أنها ضدي إذا شيّأتها ولكنها لا تكف عن تشييئي دون وعي منها. إنها تهرب مني في وقت لا أكف فيه عن الاندفاع نحوها. إنها - رغم كل ما تقوله - تفضل التفاهة والمشاعر التي تمر على السطح، وأنا أعرف أن الحياة قد خدشتها بما فيه الكفاية لترفض مزيداً من الأخداش ولكن لماذا يتعيَّن علي أنا أن أدفع الثمن؟ إنها امـرأة جميلة -وتستطيعين رؤية ذلك في صورها - ولكنها أجمل في الواقع من صورها، وقد يكون دورها في إتعاسي وهزيمتي أنها مشتهاة بطريقة لا يمكن صدها وهو أمر لا حيلة لها به ولكنني أيضاً لا حيلة لي به، وهي ذكية وحساسة وتفهمني وهذا يشدني إليها بقدر ما يبعدها عني، فهي تعي أكثر مني ربما طبيعة الرمال المتحركة التي غرقنا فيها دون وعي منا. أقول لك باختصار انها جبانة، تريد أن تكون نصف الأشياء، لا تريدني ولا تريد غيابي، وفي اللحظة التي وصلت فيها أنا إلى انتساب كامل لها كنت أبحث عنه كل حياتي تقف هي في منتصف الميدان.

إنني أدفع معها ثمن تفاهة الآخرين.. أمس صعقتني، مثلاً، حين قلت لها انني أرغب في رؤيتها فصاحت: أتحسبني بنت شارع؟ كانت ترد على غيري، وكنت أعرف ذلك ولكن ما هو ذنبي أنا؟

إنني أتمزق مثلما لم يحدث لي في حياتي أبداً، لا شيء كان قادراً على هزي بلا هوادة أكثر من هذه المرأة، إنني أحبها، وأشتهيها.. وفي سبيل ذلك ارتكبت حماقة أخرى لا يد لي بها: يا فائزة، ليس لديّ أية علاقة جنسية مع أي كان.. هل تفهمين؟ إنني رجل مأساتي هي في ذلك التوافق غير البشري بين جسدي وعقلي، هكذا قال لي الدكتور ولسون يوماً: ولذلك أنت مريض بالسكّر يا صغيري!

ولكن حذار أن تحسبي أن هـذه هي المشكلـة. لا. إنني لست صغيراً إلى هذا الحد ولم يعد الجنس بالنسبة لي نهاية الكون. ما هي مشكلتي إذن؟ لا أعرف، ولكنني أريدها. هذا شيء مستحيـل كما قـد

تقولين، وأنا أعرف ولكن هذه هي القصة.

دعينا نحاول اكتشاف الأمور ببساطة: لنقل أنها امرأة يلذ لها تعذيبي فلنسعد الآن، الفراق لا بد منه فلنتلاق بانتظار أن يأتي.

أو فلنبتر كل شيء الآن. هذه اللحظة، في جرح نظيف ونبيل ونهائي.

ولكن في الوسط؟ في الوسط يا فائزة التي تعرفين أنني لا أستطيعه، يا لتعاسة أخيك المغلوب على أمره.. إن سيزيف نسي قضيته ضحية الغادة. أما أنا فثمة صخرة واحدة، أحملها مرة واحدة، وأعود بها مرة واحدة!

وكيف حال أسامة؟ علميه أن الزيف هو جواز المرور الأكثر حسماً، وأن الدنيا هراء يكسب فيها من ينزلق على سطحها، لا تروي له أبداً أبداً قصة خاله الذي أراد ذات يوم أن يصنع الحياة بمشرط جارح.. إن الحياة أقل تعقيداً وينبغي أن تكون أكثر بساطة. إن الحياة مثل هضبة الجليد لا يستطيع أن يسير عليها من أراد أن يغرس نفسه فيها. الإنزلاق هو الحل وهو الاحتيال الأمثل.. علميه أن لا ينتظر ثلاثين سنة ليرتكب أخطاء خاله التعيس، وأن لا يتوقع شيئاً.

لا تكتبي لي جواباً. لا تكترثي، لا تقولي لي شيئاً. إنني أعود إليك مثلما يعود اليتيم إلى ملجأه الوحيد، وسأظل أعود: أعطيك رأسي المبتل لتجففيه بعد أن اختار الشقي أن يسير تحت المزاريب!

١٩٦٦/١٢/٢٨

الشمس ستشرق بعد قليل، ولتوي تلقيت هاتفاً منها.. كنت أنتظرها طوال الليل وكنت أعرف أنني لو أردت أن أجدها لوجدتها ولكنني كأنما دون إرادة مني كنت أريد أن أرى مدى اهتمامها هي. لا خبر، لا إشارة. لا شيء. قالت لي في الصباح أنها ستأوي إلى فراشها في العاشرة ولذلك «أذهب لبيتك باكراً اليوم».. ولكن حتى منتصف الليل لم

تكن هناك، ولا في الواحدة، ولا في الثانية، ولا في الثالثة... ثم هتفت لها فأبلغتني أنها كـانت تشرب نبيذاً، وأنهـا كانت تسهـر مع صـديق... وسألتني: لماذا تأخرت؟

كانت تحسب أنني أحدثها من البيت ولكنني لم أكن هناك. كنت على بعد صرخة واحدة منها. كنت سألت في البيت عما إذا كان أحد قد هتف فقيل لي أن جرس الهاتف دق مرة أو مرتين دون جواب فهتفت لها، وهذا ـ يا فائزة ـ ما كانت تريد أن تقوله! هل تتصورين؟ كانت تجهد لتنال أذني كي تصب فيهما اللعنة.. ترى ما الذي يذكّر هذه الإنسانة بي، إلا الذل؟

ما الذي حدث هذه الليلة؟ إنني مجنون. هذا شيء حقيقي: حين كتبت لك الصفحات السابقة كنت، أيضاً، على بعـد خطوات منهـا، في المقهى المجاور وسيارتي إلى جانب سيارتها، ومثلما حـدث وتوقعت لم تكترث، وذهبت، وكنت أشرب كأساً مع كل صفحة حتى صار الليل وفتك الكحول بكتفي فلم يعد بوسعي أن أحرك ذراعي وقدت السيارة في المطر والغبش والذهول بهـدوء لم يكن عندي في حيـاتي، وقررت أن لا أرى أحداً... لم أفكر بالموت، فكرت بالتعاسة فقط وعرفت أنني سأكون تعيساً إلى أمد طويل. إنني أحبها وهذا شيء لا أستطيع أن أنكره ولا أن أنساه ولا حتى أن أغفره لنفسي، وحين لمست أصابعي جسدها ذات ليلة راودني شعور مخيف، أخافني حقاً، بأنني لم ألمس امرأة من قبل.

وهأنذا مكسور ومطعون وبعيد عن كل شيء، غداً لن يكون يوماً آخر.. وأنا أعرف أنني أحتاج أن أكون وحيداً تماماً ربما ثلاثة شهور، أظل أكتب في هذه الأوراق لك، يوماً بعد الآخر، لتري بعينيك قصة رجل ينتهي، أو يبدأ، أو ينزلق، أو يغترب، أو يموت بالصدفة بعد ذلك كله.

وما الذي بقي لأفعله أيتها العـزيزة؟ مـا الذي بقي؟ بعـد قليل سأشرب قهوة أخرى، وأحتاج لكأس حليب كي يظل صدري قادراً على التنفس.. وسأمشي، ولكنني لن أرى أحداً... وسأضع نفسي في مكان أبعد

وأنأى من أن أسمع فيه صوتها وأكثر انخفاضاً من أن يتيح لي رؤيتها أو التحدث إليها.

أجلس الآن في الشمس وأكتب. مررت من أمام بيتها عشر مرات ورأيت سيارتها ووقفت على حاجز الروشة أتفرج على الناس والأطفال والموج وأنا أكاد أغفو على الحاجز. لأول مرة منذ سنوات نسيت الإبرة اللعينة ونسيت الطعام.. تراها سألت عني؟ ذلك لن يكون إلا إذا كانت تريد أن تراني معذباً، أو تريد أن تنصحني تلك النصيحة التافهة: إذهب إلى بيتك باكراً.. أو تقول لي: لماذا تغار؟ بعيدة عن الحقيقة بعيدة بعيدة.. ستجد ألف عذر لترضي هذا الطفل القنوع الغبي، وكالعادة لن يكون بوسعي أن أقول لها: لا، وأمس ليلاً ماذا حدث؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث غير أنها كانت فخورة بأنها قادرة على الخروج مع شاب آخر، أو مع نفسها، وأنا أنتظر؟

وما الذي أريده.. ما الذي أريده من كل شيء يا فائزة؟ ما الذي يريده هذا الطفل المدلل الضائع الغبي الذي تحول إلى كرة متشابكة من الأعصاب والجروح.

بيروت ٢٧/١٠/١٩٦٦

عزيزتي فائزة ..

إنني أغيب عنك سنوات ولكنني أعود، أنبع فجأة، وأنت تقولين لنفسك: ها هو الطفل يعود. كنتِ فيما مضى تغضبين وتحزنين وتقلقين أن تفتقديني ولكنك استسلمت أخيراً لذلك الطفل الغريب الأطوار دائماً، المغلوب على أمره دائماً، الباحث عن ملجأ دائماً.. تستطيعين الآن، بعد ثلاثين سنة، أن تعطيني شيئاً واحداً هو أنني سأظل أعود، فقد كتب علي كما يبدو أن أظل مزروعاً في أعماقي، أن أتشبث بالشيء الذي انكسر فيّ حين كنت في العاشرة من عمري، وقد ظللت دائماً أوفى الناس لشيء اسمه التعاسة وسوء الحظ، وها أنذا أعود مرة أخرى لك، ربما لأنك بعيدة عني ولأنك الجزيرة التي لم تتبدل ولأنك لا تستطيعين أن تأخذي مني وتعطيني ذلك ..

ما الذي حدث خلال السنين الطويلة الماضية؟ ما الذي حدث، بالضبط، منذ اقتحمت عليّ غرفة العمليات؟ هل تذكرين؟ يوم رفعت المشرط في وجه المسكين ولسوء ذلك هو سكرتير الطبيب الذي كان يجد فيّ ما لم أجده أنا نفسي، أنه مجنون بالسكين حين يذكر القصة. كنت أنا مع هذا رغم كل شيء، وقلت له: ليمت الطفل، ولكن إذا ماتت هي فسنموت معها. ورفضت أن أترك وظللت مثل مجنون فأنا منتصباً ظهري إلى الزاوية وأنظر إليك مضرجة بالدم تحت أعباء البارزة وحين تنفست الصعداء بعد قرن من رعب الغد إليّ، وسقط المشرط من يدي... ولم أدرك إلا بعد أن صار ابنك في الرابعة من عمره ..

لماذا أذكرك الآن بهذا الشيء الذي مضى؟ ربما لأنني أشعر كم كنت مع هذه.. إن الإنسان ليس إلا مخترع ملاجئ، هكذا كان وهكذا وهكذا سيظل، وكل ما عدا ذلك هراء في هراء، وأقول الآن: كنت أحس به ملجأي حقيقياً دافئاً تلك العزيزة التي كنت تسمينها، حين كنت طفلاً، الحبوة، ولكنني أحس كم كان فقدانه هولاً ساوت فيه إرادة العيش بشفرة المشرط. إنني لا أنسى صديقي الدكتور ولسوف [illegible] حين كانت تسبح فيهما عينا الكرتاف الزرقاوان، كان رجلاً قادراً على الفهم من فرط ما شاهد الناس يموتون ببساطة ويتركون وراءهم العالم عشاً أقل، وكان يعرف أني ملجأي.

وها أنذا أعود يا فائزة مثلما كنت أعود إليك طفلاً شقياً للبلاد بحر يافا العزيز

وتستطيعين بنفس الصوت البريء أن تقولي لي: "كنت تسير تحت المزاريب لكي لا أعرف من تبلّل به السعادة.." تحت المزاريب يا فائزة تحت المزاريب.. إني أعطيك رأسي بعد أكثر من عشرين سنة لتجففيه مرة أخرى، رغم أني أحسه مبتلاً من الداخل، أعطيك رأسي، أنا الشقي المسكين، فلم يتبق ثمة شيء أحدثك.. وبالضبط لديهما مع بعد الف ميل.

ما الذي حدث منذ ولد أسامة عبر ذلك المخاض الصعب الرهيب؟ بالنسبة لي ما تزال دفتا الباب الأبيض تروحان وتجيئان متقاطعتين منذ خرجت منهما. هل تغير أي شيء؟ ما الذي حدث؟ أي جنون يملأ هذا العالم! هل رأيت الدكتور وسوف تراه مرة أخرى وتحدثتما عن جنوني؟ هل يعرفني أسامة؟ هل يسمع عني بين الفينة والأخرى؟ أما أنا فقد حدث لي ذلك الشيء الذي تحدث لي مرة أنه وحده سيحطمني ذات يوم: الحب.

لو كنت هنا، وحدثتك عنه كما كنت تفعلين منذ زمن، لنظرت إلي في لحظة مسترقة وهززت رأسك موافقة. لقد عشت عمري أنتظر أن أرى من رأسي تحت الآلة. حين جلسنا مع جاكلين في حدوده قبل سبع سنوات اختفت أول فرصة ورفعت أمام عيني حاجبيك كأنك تقولين "لا، ليست هي" ورأيت جاكلين، ورأيت مني، ورأيت كوكب عبر حاجبيك اللذين كانا دائماً يقولان "لا".. وجاءت هي. فقط لي أنا هي.

أخيراً هذا هو الشيء الذي كنت تنتظرينه يا فائزة وراء ظهري، دون أن أعرف.. "هذا هو الشيء الذي وحده يستطيع أن يحطمني. كم كنت صادقة وكم كنت غبياً".. أتذكرين يوم جئت إليك أقول أن جاكلين سافرت؟ قلت لي بلا مبالاة بعطور: إن شراستك كلها إنما هي لإخفاء قلب هش، لا حدود لهشاشته. ذات يوم ستصل إحداهن إليه وستطحنه.. وإذ تجيء جوهرة إليك ستأتيك وحدي!

كأنما أجيء لأشكو نفسي، بل لن يسعك أن تحكي أحداً، إني أعترف وليس بوسعك أن تردي بعد، إذا واحدة في هذا الجسد الذي كان كله آذان، إننا نجيء دائماً متأخرين. متأخرين، متأخرين. أنهيت كل شيء الآن يا فائزة؟ متأخرين!

أقف الآن مع هذا المرتفع في حياتي وأنظر إليك قاتلة مليئة بالشوق والتوحد، وتمتد في برودة الماضي وبرودة المستقبل دونما تغيير.. ويبدو أنني أحاول أن أستبدل الوطن بالمرأة، أعرفت

في تحمله كله ما هو أشنع من هذه الصفقة، وأكثر منه استحالة؟ ولكن هذا ما يحدث، وأستطيع أن أكتشفه بوضوح في قرارة نفسي كأن كل ما حدث لم يكن إلا اختيارًا أعمى في هذه اللعبة. لقد قاومت منذ البدء أن أستبدل الوطن بالمنفى، ثم بالمأساة، ثم بالكلمة، ثم بالعنف، ثم بالمرأة، وكان دائمًا يحدوني الإحساس الحقيقي، ذلك الإحساس الذي يهتف بي حين أصحو في الصباح: "من شيئًا في هذا العالم [illegible]" [illegible]؟ ولكن الاحتمال [illegible]، فقد كنت أريد أرضًا ثابتة أقف فوقها، ولكن نستطيع أن ندفن كل شيء ما عدا أقدامنا، إننا نستطيع أن [illegible] بالوقوف على رقائق الجليد هشة معلقة بالهواء، والآن كنت أمشي على رقع الجليد نفسه، ودون كل ما كتبته وكل ما [illegible] في حياتي إلا أن الصمت [illegible] تحت الخطوات المطرودة.

مرة أخرى، ما الذي حدث؟ تزوجت مرة، [illegible] [illegible] وقد كان لي الخبز مثلما كان الدليل، ولكنني لم أستطع أن [illegible] شيئًا، لم أكن أستطيع أن [illegible] بعد أن [illegible] لم أكن أستطيع أن [illegible] بيني وبين [illegible] من [illegible] ولم أكن أستطيع [illegible] من [illegible] لا [illegible] عن حاجة [illegible] ولم أكن [illegible] وكيف، ولكنني كنت أعرف، كنت أمارس تلك الفضيلة [illegible] الوهمية، كنت أقترح [illegible].

لقد صادفت آني حين كنت قد [illegible]، [illegible] [illegible] مع [illegible] [illegible] المغربية والجمالية، [illegible] الذي [illegible] أن أتزوجه كنت [illegible] الارتباط مع امرأة [illegible] جميلة و[illegible] مشابهة [illegible] أن نعيش معًا. كانت تلك المرأة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] النتاج [illegible]. [illegible] آني ذلك اليوم مثلما [illegible] رسالة [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] التي [illegible] في [illegible] كل [illegible] مع [illegible] الأرض. [illegible]: كانت [illegible].

كانت [illegible] [illegible] كل شيء. [illegible] [illegible] سنوات كثيرة [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] بيننا، و[illegible] مرة أخرى [illegible] الاتصال: حين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

ولكني رغم ذلك كله تخلصت تخلصاً للقيم التي احترمتها والتي أورثني إياها ، استطاع حدي المؤمن الانفصال عن [illegible] وأنه أمر لم [illegible] ، ولكنه أعرف في أعماقي أن الشراع المطوي في أعماقي [illegible] بريح الغربة من جديد ولكني [illegible] ، وبقوة السنين تخلفت عن حياتي السابقة في [illegible] ، كانت وما تزال [illegible] ، ربما الشيء الوحيد في هذا الكون الذي استطيع [illegible] أن أقدم له حياتي إذا ما تعرضت لخطر الغياب .

أقول له ربما الآن رغم أنه سألتني ذات يوم وكنا وحدنا : هل أنت سعيد معي ؟ فقلت له [illegible] وصادقاً : لا . إن الحقيقة [illegible] شيء آخر ، وهي تعرف .

ثم ماتت عائدة .

ماتت ؟ لا . إن الكلمة لا تكفي : عادت . فقد كانت [illegible] دائماً في أعماقي لم أتحدث عن الفترة التي كنت أراها فيها عائدة في [illegible] عشر سنوات . لا . الذي [illegible] ذلك [illegible] . [illegible] ؟ [illegible] كنت [illegible] شمعة [illegible] زجاجة ، [illegible] التي [illegible] شيئاً [illegible] زجاجة و[illegible] شمع ، وكان ذوب الشمع [illegible] الزجاجة [illegible] ، [illegible] الشمع [illegible] الشمع [illegible] سطح الزجاجة [illegible] في ثغرة لم أكن قد لاحظتها من قبل وتجمد هناك [illegible] الشمع [illegible] .

[illegible] ما حدث [illegible] أحداث وصمت آخر [illegible] أول مرة [illegible] في أعماقي كل الذي [illegible] . ورغم ذلك [illegible] الذي يدخل إلى عقل [illegible] لا يعرف [illegible] إلى الأمام

[illegible] لم [illegible] ، [illegible] نفسي لم أصدقه ولا أصدق [illegible] تتكلم [illegible] الداخل .

لقد عدت أكثر من مرة في حياتي وأنا وحيدة ولا أستطيع أن أردم الهوة بيني وبين العالم الذي بالرجال ، (في الواقع لا أومن بهذا ، وقد قالت لي هالة أن تكون قبل السرة) أم أنني أنا المخطئة !

أحاول مرة أخرى : إنك تحبني وتخشى إذا ما اندفعت نحوي أن أتركها مثلما يحدث في جميع العلاقات السخيفة بين الناس ، وتخشى إذا ما ذهبت في علاقتنا إلى مداها الطبيعي أن تخسر صداقتنا . ولكن يا فارزة هذا كلام كتب وأطباء وعلماء نفس ، وليس علاقة امرأة أمام رجل يحبها وتحبه ..

أحاول مرة ثالثة : إنك تحبني إلى حد لا تريد معه أن تشوه حياتي . ولكن من الذي قال لك أن الزواج لن يحصل ؟

يا فارزة ، إني أشعر كأنك ، ربما أنك من يحبني ، وليس كالآخرين مثلما يحدث للباحث في المختبر ، كثيرة هي الأحيان التي أمام الناس تحاول الارتباط ، إن ذلك لا يرضيني ، (نعم فقد وصلت إلى هذا الحد!) ولكن لماذا ؟ ما الذي يدفع إنسانا مثلك أن تمزقه إلى هذه القوة ؟ أمس قالت لي أم صديقتي : إن صديقك أي رجل في هذا العالم لن يدخل حتى الآخرة ، لأنه ... (وكانت تتحدث عن صديقي) لماذا ؟ ما هو ذلك الشيء الرهيب الذي يدفع امرأة لأن تقول هذا الكلام الأهبل الذي قالته أم صديقته ؟

لست أدري يا فارزة ، ولكنني أقول لك ، لحظة وأنا أروي ، امتزج ذلك كله وعشته واتخذت منه ومن كله ... أحيانا أنظر إلى عينيك وأقول لنفسي : ينبغي أن أتركه هذه المرأة التي يريد لها أن تكون مع هذه الصورة ، ولكني لا أستطيع ، كنت فيما مضى أستطيع أن أصل إلى قرار في لحظة حين أقول هذا الكلام لنفسي ... أما الآن فأنت لست تدركين تماسكي !

إن الدنيا عجيبة ، ولذلك لا أقدر ... أبدا وحشية قد خلقت الأشياء في الساعة ... خلطها جميعا فجعلت نهايات الأشياء بدايات والبدايات نهايات .. ولكن قولي لي : ماذا سيكون أن نخسره في هذه الحياة الرائعة ؟ تدركين ما أعني . أنا وأنت في نهاية السخافة سنموت .

وأنا لم أكتب إلا ذلك كله لأظل صادقة ، أستطيع الآن أن أدقق في ذاكرتي حول
هذا الموضوع .. وأستعادني أنني أعرف كيف أستعيد الأشياء ، وسألتني ذات يوم
سأكون قادرة مع أن أقول لنفسي وأنا أودع أمام باب بيتها ووجه أن ينتج لي
لحظة الاقتراب منه : "لقد ماتت" ، عندها سألتني ، وقد ارتكبت حماقة ، وقد
انكسر لشيء أو شربته ، وسيظل قلبي يقرع كلما أتوقع أو أراها ، أو أسمع أخبارها
كلما تشرع قلب المرء منه صارت شيئاً [illegible] ، وأقول لك ما هذا الشيء ؛ قد
أخذته وأحطم ولكني أبداً أبداً لن أقبل أن أكون صديقاً لك ، أرى بعيني
المكسورتين رجلاً يثبت أنه يجمع [illegible] ولكن لن أتحمل هذا الهراء .
أنني .. كما قلت لك مرة - أفضل الموت على الأسر ، أن أولاً لا تستطيع أن يكون
لا بد لك ، ولم الأمل عند الذي الطفلة ستأخذني دائماً أن أقول الزيف .

إن الأيام تدور أيتها الحزينة ، تدور وتدور بينما تدور بأشياء ، وكنت
غبارها الثابت بأمل الإنسان أن ... التي يوم ولد [illegible] لنا والذي المسكين
كيف مشى هرج صديقه غبار الطلوت حمقاء مع من ثم سور عينا ؟ قال
لنا يوماً أن الغبار وقت النزيف .. يا الله كم كان يقرأ الغيب !

هل تسمعين ذات يوم أنني كشفت عن ضميري ، أقول لك الآن : لا تصدقي ، أنني
أمرح بطريقة لا يمكن أن تدرك ، كشفت عن [illegible] ما لم أكتب في حياتي ومرح يوسف
أمرح تحديث العالم والناس ونفسي وتفوقت عليهم جميعاً ، أن [illegible] هنا من هذا
المستوى لا تقتله المرأة ولكنه مع الأسف سيطمح أكثر من أن يحمله وهو يدرك هذه
الحقيقة . لا فرار ولا ملجأ لهذه المرة فلنأكل محصول الغبار .

ستسألينه : ما الذي تريدين أن ؟ وأنا لا أعرف ، أعرف فقط أنني أريدها .
أنا لا أستطيع أن أفهم كيف ترفض المرأة رجلاً تحبه ، أن علاقتها ... الجديدة ، تمضي
هامة ، وإذا كنت أنا قادرة على أن أكاد أرى رهيب من النوع الذي أحبه منذ سنوات تقيف
ترى أن أمس الأخير ؟ صحيح أن الحس ليس أولاً ولكنه موجود .. أوه يا عزيزتي ! ليس
من السهل بالنسبة لي أن أبحث بطريقة هستيرية حتى لا أبحث في الزوجة ذلك ، وإذا

[redacted] . انني ماذا اريد ؟ لا اعرف اين الإثارة في الرفض .. ان الحياة مفتقدة الآن ما ينبغي للناس ان يعيشوه ، اربعين سنة في الاكثر ، والذي اشعر به اننا نُضيّع حياتنا هباءً ... ان رجولتي لم تبدأ في حياتي مثلما تبدأ في كل ليلة اقول لها غداً : غداً هنا ... ثم ادير ظهري وامضي كأنني قطعة خشب لا تسكنها عصبة ، و ينزف جرح تلك الجولة الجديدة حينما احس وراء ظهري اصطفاق الباب ، ان الأمر لا يحتمل .

ماذا افعل ؟ عاطفي اتقوى [redacted] لي رغم انني لدي الصبح ، ولكن علي ذلك يساعد في الوصول الى شيء .. اننا نافرون من يخفي الشر متحدثاً بنا . احياناً افكر في الانتحار بعدائية علي ان اموت شريفاً مع الانتقال ، احياناً افكر بالسفر الى مكان مجهول : ابدل اسمي واعمل واعيش الى ان اموت تحت ... مجهول .. احياناً افكر في انتقام بشري و البقاء فيه .. ولكن ذلك كله - اسأل - ماذا يجدي ؟ اتسبين انني افتش عن فرار من نفسي ؟ لا . منفى ؟ لا . اذن ماذا اريد ؟ انني اريدك . ولكن كيف ؟ كيف ؟ اين هي الوسيلة السحرية في هذا الكون [redacted] التي تستطيع ان تضع اقدامنا خطوة معاً ؟

ان الشيء الوحيد الذي اردته في حياتي لا استطيع الوصول اليه . لقد تبين لي ان حياتي صحيحة كانت سلسلة من الرفض ولذلك استطعت ان اعيش . لقد رفضت المدرسة ، ورفضت العائلة ، ورفضت الثروة ، ورفضت الخضوع ، ورفضت القبول بالأشياء ، ولكنني ابداً لم ارد شيئاً محدداً ، وحين اريدها تتفرع عن اصابعي (واصابع القدر والاشياء والعالم . اانت تفهم ذلك) مثلما يتفرع الماء من الغربال !

انني افكر بالنسبة لها كالحي ، حركتنا قاصرة ، ان [redacted] طلعتي في رجعة الا ان تجيء اللحظة . الزمن ضدنا لا نستطيع طالما هو معنا . اللقاء سيكون فلتلاقه حين يكون زمن ممكناً . سنخسر كل شيء فلنكن في الزمن كي لا نندم . اللقاء قادم

انا اعرف انك تحبني .. لا .. ليس كما احبك . ولكنك تحبني .. انك تريد دائماً ان
تكون عندي اذا شئت ولكنك لا تكف عن تشبيهي دون وعي منك .. انك
تتردد في وقتك لا تكف فيه عن الاندفاع نحوها .. انك رغم كل ما تقوله تتعلق بتفاهة
والمشاعر التي تمر على السطح .. وانا اعرف ان الحياة قد خدشتك بما فيه الكفاية لترفض
مزيداً من الخدوش .. ولكن من ذا يتعين عليه ان يدفع الثمن ؟ انني امرأة جميلة .. وتستطيع
رؤية ذلك في صورها .. ولكنك اجمل في الواقع من صورها .. وقد تكون دورها في انتقامي
وهزيمتي انني مشوهة بطريقة لا يمكن صدها .. وهذا امر لا صلة لي به .. ولكنني ايضاً
لا صلة لي به .. ولكني ذكية وحساسة وشهية .. وهذا يشدني الى نقد ما يجعلك
عني .. انني تحي انوثتي ربما طبيعة ارادة متحركة التي عرفتها منذ زمن .. وعي منا .. اقول
له يا صفقات .. انك صبيانة .. تريد ان تكون نصف الاشياء .. لا تريدني ولا تريد
غيابي .. في اللحظات التي وصلت فيها الى انسان .. كان ذلك كنت ابحث عنه كل
حياتي تتفقدني في منتصف الميدان .

انني ارفع صحوي عن تفاهة الاحزان .. احس بالغثيان .. اشياء .. حين تقول
لي انني ارغب في رؤيتك صامتة .. اكثر سعادة ؟ كانت ترد في عيوني .. وكنت
اعرف ذلك وكانت ما هو شيء الا ؟

انني اعترف بما لم يحدث لي في حياتي ابداً .. لا شيء كان قادراً على هزي
بهذه الجرأة الا من هذه المرأة .. انني احترق .. واشتهيت .. وفي حينها ذلك ارتبكت
صفقة الوك ليس لي .. يا عائدة .. ليس لدي اية علاقة جنسية مع اي كان ..
هل تتراجعين ؟ انني رجل بمأساة هي في ذلك التوافق غير البشري بين جسدي وعقلي ،
هكذا قال لي الدكتور ولست ادري .. ولذلك انت مريض بالـ.. يا صغيري !

ولكن هذا ان تنسي .. ان هذه هي مشكلة .. لا .. اني لست صغيراً
الى هذا الحد .. ولم يعد الجنس بالنسبة لي نزعة الكون .. ما هي مشكلتك اذن ؟ لا اعرف ،
ولكنني اريدها .. هذا شيء مستحيل كما تقولين .. وانا اعرف ولكن هذه هي الحقيقة
لا عليها كاول اكتشاف الامور بسيطة : .. لستِ امرأة .. تحديك

منـــصرف الآن . القراءة لا بد منه تكلفانه انتظار ان يأتي او [illegible] فلنتر كل شيء الآن . هذه اللحظة ، في جرح نظيف ونبيل ونزالي .

ولكن في الوسط ؟ في الوسط يا فائزة التي تزعمين انني لا استطيعه ؟ في لتقاسمة الفعل المطلوب من اوه .. ان سيزيف نسي قضيته ضحية العادة ، انا انا نحمة صخرة واحدة ، احمل زة واحدة ، واعود بحجارة واحدة !

وكيف هذا للساعة ؟ حلمي ان الزيف هو هواء المرور الآن حسياً ، ان الدنيا هواء يكسب فيه من يزداد في سطحه . ولا تروي لي ابداً ابداً قصة خاله الذي اراد ذات يوم ان يصنع الحياة بشرط مارح .. ان الحياة اقل تعقيداً وينبغي ان تكون اكثر بساطة . ان الحياة مثل الهضبة الجليد لا يستطيع ان يبني عليه من اراد ان يغرس نفسه فيه . لا نزال لذا الكل [illegible] وهو الاحتيال الامثل .. عليه ان لا ينتظر ثلاثين سنة ليرتكب اخطاء خاله المقيس ، وان لا يتوقع شيئاً ،

لا تكتبي لي جواباً . لا تأتي . لا تقولي لي شيئاً . انني اعود الآن كما يعود اليتيم الى [illegible] ملجأه الوحيد ، وسأظل اعود . اعطيه رأسي الذي يكل لتعفنه بعد ان [illegible] اقدار السقي ان يسير تحت المزاريب !

٢٨ / ١٢ / ٩٦٦

الشمس ستشرق بعد قليل ، ولتوي تلقيت هاتفاً منها .. كنت انتظره طوال الليل ولكنني اعرف انني لو اردت ان اجدها لوجدتها ولكنني كنت دون ارادة مني كنت اريد ان ارى مدى التماسك في . لا غضب ، لا اشارة . لا شيء . قالت لي في الصباح انها ستأوي الى الساعة العاشرة ولذلك " اذهب لبيتك باكراً اليوم " .. ولكن حتى منتصف الليل لم تكن هناك ، لا في الواحدة ، ولا في الثانية ، ولا في الثالثة ... ثم هتفت لي فاجأتني انها كانت تشرب

بيننا ، وانها كانت تسير مع صديق ... وسألتني : لماذا تأخرت ؟

كانت تحسب انني احدثها من البيت ولكنني لم اكن هناك ، كنت على بعد شرفة واحدة منها . كنت سألتها في البيت عما اذا كان احد قد هتف قبلي لي ان اجد طائفة من رقة او رسالة دون جواب كتبتها لها ، وهذا - يا فائزة - ما كانت تريد ان تقوله أو هي تقول كانت تحب ان تنال اذني كي تصب فيها اللحنة .. ترى ما الذي يذكر هنا [illegible] مناسبة لي ، الا الذل ؟

ما الذي حدث هذه الليلة ؟ انني مجنون . هذا شيء حقيقي : حين كتبت لي الصفحات السابقة كنت ، ايضاً ، على بعد خطوات منها ، في المقهى المجاور وسيارتي الى جانب سيارتها ، ومثلما حدث [illegible] وتوقعت لم تمت ، و ذهبت ، وكنت اشرب كأساً مع كل صفحة حتى نفد الشراب ومس الكحول كتفي فلم يعد بوسعي ان اواصل ذلك وقدت السيارة في المطر والغيث والذهول كعبد لم يكن عندي في حياتي ، وقررت ان لا ارى احداً ... لم افكر بالموت ، فكرت بالتعاسة فقط وعرفت انني سأكون تعيساً الى امد طويل . انني احبك وهذا شيء لا استطيع ان انكره ولا ان انساه ولا حتى ان اغفره لنفسي ، وحين لبست اصابعي جسدها ذات ليلة راودني شعور مخيف ، اتافه في حقاً ، بانني لم المس امرأة من قبل .

وها انذا مكسور ومطعون وبعيد عن كل شيء ، وغداً لن يكون يوماً آخر .. ولا أعرف انني احتاج الى أن أكون وحيداً تماماً ربما ثلاثة شهور ، اظل اكتب في هذه الاوراق ، يوماً بعد يوم ، ثم تري بعينيك قصة رجل ينتهي ، او يبدأ ، او ينزلق ، او يغترب ، او يموت بالصدفة ؛ بعد ذلك كله .

وما الذي بقي لا فقده اليوم الحزينة ؟ ما الذي بقي ؟ بعد قليل ساشرب قهوة اخرى ، واحتاج لكأس حليب كي يظل صدري قادراً ان يتنفس .. وسأنسى ، ولكنني لن ارى احداً ... وسأضع نفسي في مكان ابعد وانأى من ان اسمع فيه صوتك ، وأكثر انخفاضاً من ان يتيح لي رؤيتك او التحدث اليك .

اصبحت مولعة بالحبر والكتب . ومررت من امام بيتك عشر مرات ورأيت سطورك وجففته
مع ماء الوشة اتفرج عن الناس والاطفال والموج وانا اكاد اعفو من الى جرأتي . ولولا
ذة منذ سنوات نسيت الاسرة الحبيبة ونسيت الطعام .. تراها سألت عني ؟ ذلك لن يكون
الا اذا كانت تريد ان تراني معذبا ، او تريد ان تغضبني على طريقة المألوفة : اذهب
الى بيتك باكرا .. او تقول لي : ماذا تقرأ ؟ جيدة عن الحقيقة جيدة جيدة ..
ستجد الف عذر لترضي هذا الطفل المتنوع الخبي ، وكالعادة لن يكون بوسعي ان اقول
لا : لا ، وامس ليلا ماذا حدث ؟ ماذا عليه ان يكون قد حدث غير انها كانت
مخمورة بلا مبادرة عن الزوار مع شاب آخر ، او مع نفسها ، وانا انتظر ؟
وما الذي اريده .. ما الذي اريده منه كل شيء يا فائزة ؟ ما الذي يريده هذا
الطفل المدلل الضائع الخبي الذي تحول الى كرة متشابكة من الاعصاب والزوغ ؟

المحتويات

تعبد مطبعة دار الكتب - بناية اللعازرية - شارع سوريا
تلفون ٣٧٠٠٧٣ - ٨١١٥٧١ - ص. ب. ١١٣٥٥٩ - بيروت - لبنان

٣٠٠٠/٩٣/١١٣٧